

فندق المصطافين

رواية

د. حامد العطية

فندق المصطافين

الدكتور حامد العطية

في الأسبوع الأخير من أيلول كان آخر نزيل في فندق المصطافين قد غادره ، ولم يبق فيه سوى عائلة مالك الفندق المكونة من الأب المريض والام وأبنائهم الاربعة وخادمتين . شرعت الخادمتان في تنظيف الفندق تمهيدا لاغلاقه ، فبدأتا بغسل الملاءات وتخزينها في الدواليب المخصصة لذلك ، ولم تنسيا وضع حبات الفينيك في طياتها . غطيتا أرائك ومقاعد البهو القليلة بشراشف بيضاء . أحكمتا اغلاق النوافذ وأبواب الشرفات حتى لا تتسرب منها أمطار وثلوج الشتاء الجبلي ، ثم نقلتا كراسي الخيزران والطاولات المعدنية من الشرفة الامامية الى قاعة الطعام. وبعد أن أكملتا عملهما واستلمتا اجورهما المتبقية ودعتا عائلة مالك الفندق، وتواعدوا على اللقاء في الموسم القادم ، وكان موظفو الفندق الاخرون وهم الطباخ ومساعده والنادل قد سبقوهما الى ذلك . أما أصحاب الفندق الذين اعتادوا تمضية بين اسبوع وعشرة أيام في فندقهم بعد مغادرة النزلاء ، يستريحون فيها من عناء أربعة أشهر قضوها في ادارة الفندق وخدمة نزلائه فقد خرجوا على تلك العادة في ذلك الموسم ، فأوصدوا أبواب فندقهم ، ونزلوا الى شقتهم الصغيرة في بيروت دون ابطاء ، ولكن احداث ذلك الصيف ظلت ماثلة في أذهانهم ، ومر وقت طويل قبل أن تصبح مجرد ذكريات .

الشهر الأول

فتحت مارى ، الابنة البكر لمالك الفندق ، النافذة العريضة في الجهة الشرقية من قاعة الطعام . حيث تقف كانت توجد شرفة مستطيلة تمتد بطول القاعة وعرضها متران ، قبل أن يوسع والدها القاعة ليهيء مكانا لخزانة ضخمة ، تحفظ في أدراجها آنية الطعام الفضية الثقيلة وشراشف الموائد ، وتعرض واجهتها الزجاجية مجموعة والدتها من علب ملبس الافراح ، وهدايا نزلاء الفندق المستديمين وتشتمل على تمثال مرمرى لنفرتيتي ، ونخلة فضية عذوقها مذهبة ، وقافلة جمال خشبية ، وتمثال للمسيح من صنع برازيلي ومرشة لماء الورد .

أسندت كوعيها على افريز النافذة وتأملت المنظر أمامها . رأته عاديا ، لا يبهر الابصار ، ولا يحبس الانفاس ، ومن المؤكد بأنه لا يستحق أن يوضع على

بطاقة بريدية مصورة . شاهدته من قبل مرات لا تعد حتى انطبع في ذهنها وتستطيع أن تتخيله وعيناها مغمضتان ، ورسمته مرات عديدة حين كانت طالبة . بالمقارنة بالجبال الخضراء التي تحيط بها من كل جانب كان منظر الهضبة التي يرقد الفندق عند خاصرتها الشمالية الشرقية قمريا ، مفجعا ، مثل بقعة صحراوية وسط واحة كبيرة . على سفحها المقابل للفندق تتناثر في فوضى طبيعية صخور بركانية متفحمة وكأنها مواليد ميتة أسقطتها الجبال بعد مخاض عسير في زمن حجري موغل في القدم .

قبل أن يهدم والدها بيتهم الصغير بمعاول الطموح ليبني مكانه الفندق كانت تتسلق كتف الهضبة . تجلس في ظل صخرة ، وتتأمل سلسلة الجبال الشاهقة الممتدة من الجنوب الغربي الى الشمال والتي ترتدى قلنسوات بيضاء أنيقة في الشتاء ؛ وتتخيلها سنامات لجمال متحجرة أضاعها بدوى فأناخت هناك بانتظاره . وكلما لمحت شكلا انسانيا يتحرك في الوادى أو على الجبل المقابل لوحت له بيدها في جرأة غير اعتيادية مطمئنة الى أنه لا يراها بوضوح من هذا البعد . تكور كفها في شكل بوق حول أذنها وتدير رأسها نحو الغرب بانتظار سماع هدير البحر الذى لا يأتي . كانت تحلم بالبحر مثلما يحلم البدو بالينابيع الفوارة والانهار العظيمة ، وتتصور نفسها طافية على مياهه الزرقاء وطعمها المالح على شفتيها ، وتبني في مخيلتها قلاعا من رماله السمراء . ومع أن المسافة بين بيتهم الجبلي والبحر تقطعها السيارة في أقل من نصف ساعة ، فلم تره في صغرها الا من نافذة سيارة مسرعة ، وما خاضت بقدميها في مياهه الا بعد أن تجاوزت العشرين أثناء رحلة مدرسية لصفها الى شاطئ البحر ؛ وكانت أحلامها الطفولية تتبدد مخلفة وراءها نفور موقت من الهضبة الجرداء وصخورها المحروقة وترابها الخشن .

في طريق العودة الى البيت تنحدر بين الصخور الضخمة ، وهي تنشد بصوت عال مقاطع من أناشيد مدرسية ، وقد تتوقف تحت شجرة الصنوبر الوحيدة

التي أحاطها الجبليون البسطاء بهالة من أساطير القدسية ، وفي بعض أيام الربيع كانت تعثر بالقرب منها على بقايا شموع وقرابين أخرى وضعها المؤمنون بقواها الخارقة . تتذكر بأنها كانت تقف على أطراف أصابع قدميها وتمد يديها عاليا نحو أغصانها المتدلية حتى يؤلمها كتفها ، وتغتاظ لأنها لا تطول بسرعة فترجمها بالحجارة مفزعة الطيور المعشعشة فيها . وحاولت تسلقها لأنها سمعت صبيا يتبجح بمشاهدة البحر من أحد أغصانها العالية ولكنها يئست من المحاولة بعد أن انسلخت جلدة يدها . وعندما تفتقدها والدتها كانت تبحث عنها قرب الصنوبرة . وكانت تتحدث اليها ، هذا ما أخبرتها به والدتها ، فسألتها في خجل الكبار عندما يذكرون بتصرفاتهم الطفولية : ماذا كنت أقول للصنوبرة ، فأجابتها بأنها لا تتذكر - " كلام أطفال " .

الى الشمال من مقبرة الطبيعة تقبع بيوت حجرية متواضعة ، بعضها لم يكتمل بناؤه بعد . ترتفع منها في الهواء أعمدة مغروزة فيها أسياخ حديدية صدئة دون سقوف أو جدران ، ولبعضها جدران مرطوبة لم تجصص بعد ، وهناك سقف أنهار بعد عاصفة ثلجية شديدة ينتظر الترميم ، وأكوام مهملة من حجارة ومواد بناء يلعب بها أطفالهم في الاوقات القليلة التي يسمح لهم ذويهم بذلك ، فالحياة شقاء واللعب ترف بالنسبة لهم ، وهم يتفاخرون على أهل السهول بأنهم ينحتون حياتهم في الصخر ، وأحلامهم تطاول ذرى جبالهم العالية ، وتتجدد عند انقضاء كل موسم وبداية آخر ، ولا تنتهي عند الموت ، اذ انها الجزء الأكبر من ارث الجبليين .

لو مدت رأسها قليلا خارج النافذة لشاهدت جانبا من قبة الكنيسة وبرج ناقوسها ، والتي يؤمها أفراد عائلتها كل صباح أحد ،يختبئ وراءها بيت صغير يسكنه الخورى مع اخته الارملة ، التي اعتزلت العمل كقابلة بعد أن تزوج ولداها الوحيدان وهاجرا ، ونذرت بقية حياتها لخدمة أخيها وكنيسته .وكان مقدار التحويل البريدى الذى يرسله اليها و لداها بانتظام موضوعا للتخمين

والنقاش في مجالس أهل القرية ، وهم بين حاسد لها ، أو طامع باللحاق بولديها أو غير مكترث . وكانت لا تستجيب لدعواتنا للغداء فيحضر أخوها وحده .

من بين البيوت تظهر مقاطع من الدرج الحجرى الذى يبدأ قرب صيدلية الشفاء على الشارع الرئيسي ، ويصعد متعرجا بزوايا حادة ، يتسع في بعض أجزائه لمرور سيارة صغيرة ، وينتهي بالقرب من الكنيسة . في السنة التي تعلمت فيها العد حتى المائة كانت تعد درجاته بصوت مسموع كلما صعدت أو نزلت عليه ولكنها لا تتذكر عددها الان .

في الذاكرة ألبوم صور تقلبه . تتوقف عند صورة قديمة . ترى نفسها فيها واقفة عند أعلى الدرج ، فتاة في العاشرة ، وجهها صغير وملامحها دقيقة . العينان تبرقان في لهفة ، وعلى الشفتين الرفيعتين ابتسامة قلقة ، ووراء الاذنين البارزتين قليلا تتدلى ضفيرتان كستنائيتان ، رقبتها ممدودة ، وعضلات جسمها متوترة ، وحواسها متحفزة ، مثل كلب صيد سلوقي وقع على طريدة ؛ ثم تبدأ بالنزول ركضا على الدرجات الملساء ذات الحواف الحادة . تشعر بضغط الهواء على صدرها ، يقاوم اندفاعها ويقذف بضفيرتيها الى الوراء مثل ذيلي طائرة ورقية . اكتشفتُ موءخرا أن الكبار أيضا يحبون اللعب على شفا الهاوية . قبل ذلك كنت أقول لنفسي بأن سائق الاجرة الذى يطفىء محرك سيارته على الطريق الجبلي المنحدر الى بيروت يعرف ماذا يفعل ، وبما أن الامر لا يخصني فلماذا أتدخل فيه . أتذكر يومها باني جفلت عندما صاح أحد الركاب " انك تعبث بحياتنا !" وكان يوجه كلامه للسائق . لم أكن قد دققت في هيئة الراكب ، فقد كنت جالسة في المقعد الخلفي وراء السائق ، وبيني وبين الراكب المحتج سيدة مترهلة في ملابس الحداد السوداء . بدت لي سيدة وقورة بالرغم من استقرار كوعها المدبب بين ضلوعي منذ بدأ الرحلة . كان الراكب خمسينيا هزيلا ، وجهه ضامر ، له شاربكث أشقر مائل الى الصفار النيكوتيني عند فتحتي منخريه ، يرتدى بدلة رمادية فضفاضة ، وقميص بني حائل اللون تطوق ياقته البالية ربطة عنق صفراء مقلمة عقدتها معوجه . نظر الينا بتمعن باحثا عن وقع كلماته على

وجهينا ، وفكرت بأن داخل هذه الشرنقة المستهلكة قائد محبوس يتوق الى قضية وأتباع ، وحتى يبلغ ذلك المنعطف المصيرى والموعد المرتقب كان يتأهب ويشحذ مواهبه ، رفع صوته عاليا فوق اللحن الموسيقي المذاع ، وسأل السائق متهكما ان كان يستطيع التحكم بسيارته لو اعترضت طريقه سيارة أخرى ، أو انفجرت احدى عجلاتها . لم يرد عليه السائق ، فتجرأ الراكب ، ووسع نطاق هجومه ليشمل كل سائقي الاجرة الذين يعرضون حياة ركابهم للمخاطر بسبب تهورهم ، ومن أجل ماذا ؟ توفير ثمن بعض الوقود أم اختبار رجولة ؟ أعجبتني نفحة الحكمة في سوءاله ، وبعد أن رددته في ذهني ليرسخ في ذاكرتي ويسهل علي استرجاعه فيما بعد للتمحيص الدقيق والمتأني عدت الى ملاحظة ما كان يدور حولي . شاهدت جارتي تضم حقيبة يدها الضخمة الى جسمها مثل درع بلاستيكي غطى وسط صدرها المتهدل على بطنها ، وشعرت بكوعها ينغرس عميقا بين أضلاعي . نظرت يمينا ويسارا وكأنها تتهيأ للفرار من الموقف المتأزم الذى ينذر بمجابهة قد لا تخلو من عنف دموى، لكن الى أين ، والسيارة تنحدر في صمت بسرعة الجاذبية على الطريق المتعرج . آخر شيء توقعته أن يعيد السائق تشغيل محرك سيارته ، فهوءلاء السواق معروفون بالشدة والتهور ، لا يهابون أحدا ، ومعلوم لدى الجميع بأن كل واحد منهم يحتفظ في صندوق السيارة الصغير أو تحت مقعده بمسدس أو قضيب حديدى أو موس حلاقة مسنونة لقطع رقبة من يجرأ على مزاحمته على راكب أو أولوية المرور . اتضح بعد قليل بأنه لم يشغل محرك سيارته بسبب احتجاج الراكب ، الذى انصرف الى تعديل هندامه ، وكأنه خارج للتو من عراك بالايدى على قارعة طريق . أوقف السيارة على جانب الطريق الترابي ، وكتم ولولة المغني ، فساد السيارة صمت مفزع ، ثم طلب منه أن " يعمل معروفا " وينزل من سيارته . لم يلتفت ولم يرفع صوته أو تتغير نبرته . فغر الراكب المدهوش فمه ، واختلجت وجنتاه في احتجاج صامت . نظر الينا مستنجدا ، ولكننا خذلناه . واصلت جارتنا المشتركة التعبير عن انفصامها عن الواقع حولها بالتحديق أمامها وكأنها تشاهد عرضا سينمائيا مشوقا ، وتشاغلت أنا بمراقبة اليد القوية المتشنجة على مقود السيارة ،

متوقعة امتدادها في أية لحظة لفتح الصندوق الصغير أو الى ما تحت المقعد. حبست أنفاسي بانتظار ما سيحدث ، وكان ارتياحي عظيما لدى سماعي صوت انفتاح باب السيارة على يميني . اندهشت لأنه لم يصفق الباب وراءه . لم تكن تلك أول مرة ينهزم فيها . قذف السائق باجرته من النافذة فسقطت على جانب الطريق ، ثم انطلق بالسيارة ولم يطفىء محركها حتى وصلنا المدينة .

أتممت ثمان وثلاثين سنة في آذار المنصرم . مرت السنون سريعة ،عادية ، ورتيبة . شتاء بيروت موسم اكتئاب . أفيق في الصباح الباكر . لا أستعجل مغادرة الفراش الدافىء الى برودة القبو الذى نعيش فيه ، وقد أغفو ثانية ثم أصحو فزعة على اهتزاز النافذة الذى يسببه مرور سيارة مسرعة في الشارع المقفر أو وقع سنابك حصان على الرصيف الحجرى . أتأكد من ساعة المنبه بأني لم أتأخر عن الدرس الاول وان مديرة المدرسة الصارمة لا تنتظرني عند باب مكتبها لتسمعني توبيخا حادا . اتقلب في الفراش حتى أسمع أصواتا خافتة من جهة المطبخ معلنة بأن والدتي قد شرعت في اعداد افطارنا . أسلك في كل يوم الشوارع نفسها في طريقي الى المدرسة الابتدائية الحكومية ، التي أعمل فيها معلمة لطلاب الصف الاول . أصادف في طريقي أحيانا مروّضي وفرسان أحصنة السباق بقبعاتهم وملابسهم الملونة البراقة ، وهم يمتطون أو يقودون حيواناتهم الثمينة قاصدين مضمار السباق القريب ، مخلفين وراءهم رائحة اسطبلات نفاذه، سرعان ما تبددها نسمات الصباح الرطبة . أعود الى البيت بصوت مبحوح لأساعد أمي في تحضير طعام الغداء ، واعداد المائدة . نقضي الامسيات في حجرة المعيشة وبعد الانتهاء من تصليح دفاتر التلاميذ أتسلى بحياكة الصوف . وعندما ينفذ الصوف نفك ماحكناه في الشتاء الماضي ونعيد حياكته .

أجالت بصرها في محتويات الغرفة رقم "١٧" . كل غرف الفندق متشابهة في مساحتها وأثاثها وترتيبها . الأثاث بسيط : سريران مفردان ، خزانة ملابس بثلاثة أبواب ، كرسيان من الخيزران يحاصران طاولة صغيرة في زاوية الغرفة

القريبة من النافذة ، وسجادة صغيرة عند قدمي السريرين ، يقول أخوها بركات بأن لدينا كراسي خيزران تكفي لاقامة مآتم أو عرس ، وأقترح مازحا أن نفتح في الشتاء محلا لتأجير الكراسي . تتمنى أن تكون لديهم نقود كافية لشراء أثاث جديد ، وكان ذلك ممكنا قبل عدة سنوات عندما كانت فنادق الجبل تعد على أصابع اليد الواحدة ، وكان الفندق يدر أرباحا جيدة ، لكن والدها رفض ، وعاند ، لأن الناس كما كان يردد ، لا يقصدون فندقه من أجل أثاثه ، بل لانهم يلقون معاملة خاصة ، ويستشهد بعبارة انجليزية تعلمها من أحد النزلاء " انه مثل بيتهم الثاني " . ويضيف بصوته الاجش : أثاثنا بسيط وغير مزركش ولكنه متين ،ولايخاف نزيلنا من استعماله . تذكروا بأن المطلوب منا هو فراش وثير يريح بدنه ، وجو هادىء يداوي أعصابه ، وطعام شهيء يملأ جوفه ، والطبيعة من حولنا كفيلة بامتاع ناظريه ... والبقية عليه . ويضحك ضحكته العالية ، ويحدجنا بعينيه الواسعتين فندرك عدم جدوى مناقشته . لم يعد ذلك ممكنا الان ، ليس بسبب معارضة والدي الذي انسحب الى عالم سرى خاص ، لا ينغص صفوه نقاش أو جدال ، ولكن لان الفندق لم يعد يحقق أرباحا ، فالاسعار ترتفع سنويا ، أما تسعيرة الفندق الممهورة بتواقيع واختام ادارة السياحة والاصطياف والمعلقة في مكتبي فلم تتغير منذ سنين ، عشر ليرات في الليلة الواحدة ، يحصل النزيل مقابلها على سرير مريح، وثلاث وجبات ، وكل وجبة من عدة أطباق مع فنجان قهوة تركية ، الفندق الوحيد الذي يقدم قهوة مجانية مع الوجبات ، ولا أحد يقدم طعاما أشهى من طعامهم ،كما يشهد بذلك كل النزلاء وضيوفهم . يردد بركات باستياء بأن نزلائنا هم وحدهم الرابحون لانهم لا يدفعون سوى مصاريف اقامتهم ، أما نحن فلا نحصل على أى شيء مقابل ادارتنا للفندق وتعبنا في خدمة النزلاء .

تأملت بعين غير راضية انعكاس صورتها في المرآة الطويلة المثبتة في منتصف خزانة الملابس . قالت لنفسها : لقد انقضى شبابك . بدأت التحولات في منتصف الثلاثينات . أول شعرة بيضاء كانت اكتشافا مثيرا للاهتمام أكثر منه

للقلق . لم أعمل بنصيحة احدى زميلاتي التي حذرتني من نتفها قائلة بأنها ستتكاثر مثل أعشاب ضارة في حقل متروك . سحبتها من شعرى كما استل خيط زائد من قطعة قماش ، ثم ظهرت أخرى ، فصرت أتلكأ أمام صبغات الشعر المعروضة في الصيدليات والدكاكين ، وأصغي لزميلاتي في غرفة المعلمات ، وهن يتبادلن النصائح حول أجود الصبغات ، وفوائد الحنة العجمية الاصلية بنوعيها ،وأقلامهن الحمر المبرية مشرعة مثل رماح دامية يسددن بها بين الجملة والاخرى طعنات موفقة الى دفاتر التلاميذ لاقناع الكثير منهم بأن تحصيل المعرفة معركة خاسرة ... لن يطول الامر حتى يمر عنكبوت الاربعين البغيض على وجهي تاركا آثار أرجله الرفيعة المتربة حول الفم والعينين .

وضعت أصابع يديها على خدها وسحبت جلدة وجهها نحو حنكها المثلث . خاطبت المرآة : هكذا كنت في العشرين ، حين كانت الامنيات تشدك الى المستقبل بحبل متين ، وتجعلك تستعجلين انقضاء الاشهر والسنين متلهفة لروئية ما يخبئه الزمان لك من مفاجئات ممتعة ، ويقشعر جلدك وترتعشين في لذة حسية من مجرد التفكير بذلك . وكانت مواعيد خائبة .

ماذا كان يقول والدى اذا ما جادله أحدنا حول أثاث الفندق :" انظروا الى هذه الطاولات والاخشاب ـ ناقرا عليها باصابعه القصيرة ـ تحسسوا متانتها. شاهدوا انعكاس صوركم عليها ، ولا تنخدعوا بالخدوش على سطوحها . انها مصنوعة من خشب حي أزلي وليست قشور خشب عصرتها المكائن ." لماذا لم يصنعونا من خشب آزلي ياوالدى ! "

تنهدت وهي تقول لنفسها : لم يصنعوا المرايا من أجلي ، فالذى يطالعني فيها يصيبني باكتئاب . لا أطيل المكوث أمامها حتى لا أرى العينين الغائرتين ، المستظلتين بحاجبين كثيفين ، والانف المدبب المعقوف قليلا.قبل عدة سنوات احتلت عقلي فكرة تجميل وجهي ، وظلت تطارني من مرآة الى مرآة . وقادتني في أحد الايام الى الشوارع القريبة من الجامعة ، وعيناى تقفزان

بين أسماء الاطباء باحثة عن جراح تجميل . وعندما وجدت واحدا ارتقيت الدرج بسرعة الى الطابق الثالث حيث توجد عيادته ، لكنني لم أدخلها لأن شابين وسيمين كانا يقفان أمام باب مجاور لباب العيادة المغلق ، صعدت الى الطابق الرابع ومنه نزلت بالمصعد الى الشارع . لو لم أستسلم لخجلي في ذلك اليوم فلربما حصلت على وجه جديد وحظ أفضل .

التقطت القائمة التي دونت عليها أرقام الغرف المحجوزة وأسماء النزلاء . ضغطت على زواياها المتغضنة ولكن دون جدوى . قالت لنفسها في مرارة : وهذه شهادة من ورق . لا حاجة للاطلاع على القائمة لتعرف من سينزل في هذه الغرفة ، فهي محجوزة للخياط العجوز المتقاعد ، جبرائيل وزير ، الذى يدفع أجرة مضاعفة حتى لا يشاركه بها نزيل آخر . جبرائيل من النزلاء المستديمين . يقضي الموسم معتكفا في الفندق ، لا يخرج منه الا نادرا جدا ، واذا لم يكن في غرفته فستجده غافيا على أحد كراسي الشرفة ، لا يوقظه ضجيج السيارات المارة من أمام الفندق ، والقاذفة بلهاثها الاسود وهي تصعد الطريق المؤدية الى جبال أكثر خضرة من هضبتنا أو النازلة منها بقوة الجاذبية أحيانا . يساورها قلق في بعض الايام من أن الرجل سيلفظ أنفاسه الاخيرة ، وترحل روحه نحو السلام الابدى على نسمة ضحى لطيفة ، ولن يكتشفوا موته الا حين يحين موعد الغداء ، وبالطبع فانها لم تعرف بان قدره قد أعد له نهاية مختلفة ، فقد عاش خمس عشر سنة أخرى ليبلغ السادسة والسبعين ، ومات مقتولا بانفجار صاروخ طائش سقط على بيته في بيروت أثناء الحرب الاهلية مخترقا سطح البيت ومارا بغرفة نومه في الطابق العلوى التي انتقل منها الى غرفة صغيرة في الطابق الارضي حيث انفجر الصاروخ . جمعوا أشلاءه من على أرض الغرفة وكشطوا بعضها من فوق الجدران ودفنوه من غير مآتم ، أما أوراقه الكثيرة التي رسم عليها أزياءه وألبومات الصور العديدة التي كان يحتفظ بها في خزانة قرب سريره فقد تحولت الى رماد .

جبرائيل وزير هو عجوزها المفضل بين كل النزلاء الذين تجاوزت أعمارهم الستين ، فهو لا يشتكي مثل البقية الذين يعتقدون بأنها تجلس في مكتبها المخنوق باضلاع الدرج بانتظار معرفة آخر التطورات عن أمراضهم المزمنة وأوجاعهم الجديدة . مرة واحدة في الاسبوع على الاقل تتوقف رسمية عند أسفل الدرج لتشتكي لها وللنزلاء الذين يهضمون افطارهم الدسم في البهو بأن عمودها الفقري - الذى تخشى من تفككه يوما ما وانفراط فقراتها مثل خرزات مسبحة انقطع خيطها - لم يدعها تغمض جفنيها لحظة واحدة في الليلة الماضية ، وترفع رأسها نحو سقف البهو العالي محتجة بأنه أعطى كل واحد عمودا صلبا يستند عليه الا هي ، عمودها نخر . وينزل عجوز آخر ، هو اسكندر مفيد ، متكئا على ذراع زوجته ، ورأسه يشع بهالة فضية من شعره الابيض الذى يحسده عليه كثيرون لغزارته ولمعانه ، ويخاطبها في صبر أيوب معذب : " العمر طال والصبر سينفذ ... كل سنة أقول لها ، ياصباح دعينا نعود الى أهلنا وبلادنا ، عسى ربك أن يتلطف بي ويأخذ أمانته في هذه السنة " . ويتبع كلامه بنظرة عتاب الى زوجته ، وكأنها وكيلة عزرائيل ، فترد عليه بابتسامة ، وتهمس باتجاهها بأن الرطوبة تهيج أوجاع مفاصله ، ثم تقوده من ساعده الى قاعة الطعام .

قطعت الممر الضيق لتدخل الغرفة رقم "١٦" . تفحصت بعينها نظافة وترتيب الغرفة ، وتوقفت عند السجادة الصغيرة التي رق نسيجها وبهتت ألوانه فبدت كخرقة مسح ضخمة . قالت لنفسها بأن بلقيس والهام لا تستحقان أفضل من ذلك . كانت تريد الاعتذار لهما بأن كل غرف الفندق محجوزة ، ولكن أمها عارضت وقالت لها في حزم بانهم لو اختاروا النزلاء وفقا لمزاجها فسيظل الفندق خاليا ، ولكن أمها تقضي معظم أوقات النهار في غرفتها ، بجانب والدها ، تستمع للاذاعة وتقول بأن ذلك يسليه - وان كان أحد لا يعرف على وجه التأكيد ان كان هو يستمع أيضا - ولا تذيب ملاحظات بلقيس الحامضية اللاذعة أعصابها .

مسحت بمنديلها بصمات زيتية من على باب الغرفة رقم "١٤" . كل

الغرف ذات الأرقام الزوجية تظل على الشارع ، وفكرت بالنزيل الذى سيقضي ثلاثة أشهر في هذه الغرفة ، اسمه منير حكيم ، رئيس تحرير مجلة مصرية ، يعامله بعض النزلاء باحترام جم ويتجاهله آخرون متعمدين . لم تقرأ أيا من رواياته العديدة التي اشترت أختها عددا منها من بائعي الكتب المستعملة على الأرصفة وبنصف أثمانها الاصلية . بين المدرسة في الشتاء والفندق في الصيف لا يتبقى لديها وقت لقراءة الروايات التي تعتبرها نوعا من الترف . سيستاء منها لأنها لم تحجز له غرفة مطلة على الهضبة . سيحني قامته الطويلة ويثبت عينيه اللوزيتين على وجهها ، وابتسامته العريضة تبرز حنكه الناتئ حتى يتضرج خداها - وتظن بأنه يفعل ذلك متعمدا لاحراجها ، ويقول لها معاتبا بأن التأليف يحتاج الى هدوء ، ولن يستطيع تركيز أفكاره بسبب ضجيج الشارع . سترد عليه في لؤم - متعمد أيضا - بأن حجزه وصل متأخرا ، وستتحداه في نفسها ان يرد بأن الغرفة غير مناسبة ، وانه مضطر للنزول في فندق آخر ، فهو لا يكترث لمناظر الطبيعة الجامدة أو النباتية - حتى لو كانت المهبط والوسيط الوحيد لوحي الادباء في هذا العالم - أو أى شيء آخر داخل الفندق أو حوله سوى منظر ولقاء المرأة التي يأتي من أجلها ، تميمة .

قالت لها تميمة في الصيف الماضي بأنها تستحق عمولة عن كل نزيل ينزل لدينا من أجلها ، وأتبعت كلامها بضحكة رنانة ، فقلت لها متملقة : " أنت التميمة التي تجلب لنا الحظ" . لم تكن تمزح ، أو تبالغ أو تتبجح ، فهي ليست جميلة فقط - وان كان ذلك نعمة عظيمة لا يقدر قيمتها ووجوب حمدها الا من حرم منها مثلي - ولكنها تمتاز عن النساء بسحر خاص ، ترى تأثيره في نظرات الوله التي يخصها بها رجال وقورون ، وتهافتهم على الجلوس معها مثل صبية مراهقين ، وصبغهم للشيب في رؤوسهم بانتظام وقضاءهم الصيفيات المتتالية في فندقنا المتواضع . انها المرأة التي يحلم الرجال بامتلاكها - كما تصفها روايات منير التي قرأتها سلمى ، والذين لا يجرؤون على الحلم

يتمنون قضاء بعض الوقت بقربها يمتعون عيونهم بوضاءة وجهها ، ويطربون لسماع صوتها العذب ، ويندهشون من أفكارها الذكية والجريئة والتي لا تصدر عادة الا من عقل ذكر ناضج . واذا كان أغلب النزلاء الذكور يشتهونها فان كل نساءهم يجمعن على بغضها ، فهي تمثل بالنسبة لهن أخطر المخلوقات : المرأة البديلة ، ويتساءلن في حسد عن سر محافظتها على نظارة وجهها ، ورشاقة ساقيها، وانتصاب نهديها بعد أن ولدت لزوجها ولداوبنتا ، ويناقش السبب الذى يجعل امرأة مثلها، لها زوج يعبدها وطفلان جميلان تلعب لعبة الفتنة الخطرة مع الرجال ، أما هي فتدرك تأثير جمالها وذكاءها على الرجال وتتلذذ بذلك .

سينزل في الغرفة المقابلة رقم "١٥" صلاح صابر ، أستاذ جامعي وشاعر مغمور ، منطوى على نفسه ، في عينيه حزن عميق ، يخرج بعد الافطار صاعدا طريق الجبل ويعود بعد حوالي الساعة محمر الوجه . قال لها بأنه تعلم هذه العادة من الانجليز . شكا لها في أحد الايام بعد أن لاحظ نظراتها المتطفلة الىالأوراق البيضاء المرصوصة أمامه بأن الافكار تدور في رأسه مثل طائرات انحشرت عجلاتها في مكامنها فليست قادرة على النزول على مدرج المطار ثم ينفذ وقودها، ويقلد بيديه وصوته انفجارا كبيرا .

فتحت باب الغرفة رقم "١٢" ، الواقعة في النهاية الشمالية للطابق العلوى . الغرفة محجوزة لابن رسمية وزوجته . قرأت اسميهما على القائمة :زهير العنبرى وزوجته الانجليزية كاثرين . لم ينزلا من قبل في الفندق . أخبرتها رسمية في العام الماضي بأن آخر مرة رأته فيها كانت قبل سنتين عندما سافرت الى لندن بمناسبة زواجه . يرفض العودة الى وطنه وأهله وأملاكه الكثيرة ،وتضع رسمية كل اللوم على زوجته : " البرصاء هي السبب . لقد قست قلبه على أمه وأختيه . سحرته بشعرها الاشقر وخدها الاملس . تريده أن يمحينا من حياته ، ويقطع كل صلة بنا ... أمعقول أن يتخلى الواحد عن أهله بهذه السهولة.. والله لو أعطوني لكوك الدنانير ، لا يمكن ! أنا لو فارقت أهلي سنة واحدة ، بل

شهرا واحدا سأموت ، أفطس من الحرقة " .

رسمية طبيعية ، مجبولة على فطرة الصراحة التي تصل الى حد الوقاحة أحيانا . لا تستحي من ابداء رأيها في الغير ، مهما كان مهينا أو جارحا ، واذا أردت كسب رضاها أو تلطيف مزاجها ، فقص عليها مناما واسألها تفسيره ، فهي تظن نفسها وريثه يوسف في هذا المجال ، ولا تقبل اعتراضا على تفسيراتها. ستنزل في الغرفة رقم "١٠" وابنتاها في الغرفة المقابلة ، ستمر على غرفتيهما بعد القاء نظرة سريعة على الغرفة رقم "١١" ، المحجوزة لتاجر اسمه مأمون معروف . هذه أول مرة ينزل فيها في الفندق ،وسيكون أثناءها تحت الاختبار، فاذا تبين بأنه نزيل مزعج فستكون هذه أيضا آخر مرة . قبل عدة أيام شاهدت صورته في صفحة أخبار المجتمع في مجلة اشترتها أختها . كان يرتدى بدلة سهرة سوداء تلف بأناقة جسمه الممتلئ . في نظراته ثقة مطلقة ، وعلى شفتيه ابتسامة متغطرسة ، وبدا غير مكترث بثلة النساء الجميلات المتحلقات حوله ، وكأن ذلك أمرا اعتاد عليه . كان رأس المرأة الواقفة بجانبه ـ وهي لم تكن زوجته لأنه أعزب ـ يميل نحوه حتى لتوشك أن تسنده على كتفه ، وقد التصق صدرها النافر بعضده . كان الثراء واضحا من ملابسهن الفاخرة التي تكشف عن نحور وصدور مكسوة بمجوهرات براقة ، ومن جسارة نظراتهن المصوبة نحو الكاميرا، وواضح أيضا من تمسحهن بالرجل بأنه أغنى منهن ـ أو بالتحديد من آبائهن وأزواجهن . وتساءلت وهي تغادر الغرفة عن سبب اختياره لفندقهم ، هل هو البخل ؟ ولم تستبعد أن يكون هو الاخر من أتباع تميمة .

زفرت مارى في انزعاج بعد أن رفعت أغطية السرير في الغرفة المحجوزة لرسمية . خرجت من الغرفة ومن أعلى الدرجة ، نادت على الخادمتين . أجابتها أختها سلمى بأنهما في المطبخ ، فترجتها أن تطلب منهما احضار فراش رسمية .

ستستاء رسمية لو حضرت ولم تجد فراشها الذى اشترته بنقودها قبل سنوات بناء على أمر الطبيب ، ولأن فقراتها هشة كما كانت تردد . تقول ابنتها

نادرة بأن والدتها تتمارض لتبقيهم بجانبها ، تنفرهم منها شهوة التسلط التي استولت عليها بعد وفاة أبيهم ، ويجذبهم اليها حبهم لها والشعور بتأنيب الضمير الذى تحركه في نفوسهم . الجميع يأسفون لابنتيها ، وبالأخص الصغرى عفاف ، التي قضت عمرها - خمس وثلاثون سنة - تعيش في ظل أمها الكثيف، وفي يوم غير بعيد سيهيلون التراب على الظل وصاحبته ، وستجد عفاف نفسها في العراء لأول مرة . تستشهد أمي بحكمة الفلاحين - وهي ماتزال تعتبر نفسها واحدة منهم - بان للنضج مواسم ، وبعد انقضاء الموسم يحمض الثمر . أما نادرة المطلقة التي ستكمل العقد الرابع من عمرها في الشتاء القادم فقد جرعت من مرارة أمها حتى الثمالة ، وتقول أختها بأنها اكتسبت مناعة ،وبدأت تتحول لتصبح مثل أمها وتتساءل في لهجة من يعرف الجواب مسبقا : " من الذى سيعتبر المنتصر في النهاية ؟ " وتتحسر نادرة على السنين التي انقضت من عمرها مشبهة نفسها بقرص العجين المنسي في التنور ، يحترق ببطء ثم يسقط رمادا .

ظهرت عبير على الدرج حاملة طرف فراش رسمية ، ثم صعدت وراءها جميلة تحمل الطرف الاخر للفراش الثقيل . تبعتهما مارى الى داخل غرفة رسمية . وبعد انتهاءهما من استبدال الفراش واعادة ترتيب الاغطية ، علقت عبير وهي تتفحص نتيجة عملها :

- رسمية طيبة ويهون التعب في خدمتها

قالت مارى في لهجة ذات مغزى :

- وكريمة أيضا

انبرت جميلة لتؤكد :

- هي وابنتاها من أكرم النزلاء .

قالت مارى :

- الله يعيننا على ارضائها ، وأضافت مشتكية : " لايزال لدينا عمل كثير لم ينجز بعد ، وسيبدأ النزلاء بالوصول غدا " .

قالت عبير :

- اطمئني ، كل شيء سيكون جاهزا .

نزلت وراءهما الى الطابق الارضي ، واستدارت يسارا ثم دخلت الغرفة رقم "٥" التي سيشغلها زائران لم ينزلا في الفندق من قبل ، خليل عبود ، وابنه فؤاد . اتصل هاتفيا قبل أسبوعين مستفسرا عن وجود غرفة شاغرة وأجرة المنامة. ترددت في قبول حجزه ، ولكنها وافقت بعد أن ذكرت له عائلة رسمية ، فقال بانه يعرف زوجها المتوفى .

أسدلت ستائر الغرفة رقم "٧". قضت أمها شهورا عديدة في تفصيل وخياطة ستائر الفندق ، حتى خشيت على بصرها ، فسألتها لماذا لا تعطيها لخياط وتستريح فأجابتني : الفلوس تنفعنا يا ابنتي والرب يساعد الذين يساعدون أنفسهم .

ستكون هذه ثالث سنة يصيّف فيها اسكندر مفيد وزوجته صباح في الفندق يودعنا في نهاية كل موسم قائلا بأنه سيعود في السنة القادمة واقفا على قدميه أو محمولا في نعش . هاجر الى البرازيل قبل أكثر من أربعين عاما ، وعاد ليتزوج بعد حوالي ربع قرن . كان زواجا بالمراسلة ، كما تصفه زوجته ، سوى أنهم لم يلصقوا علي طوابع ، أو يدمغوني بأختام ، وتضحك فيهتز شحمها المكتنز ،وتضيف : بعث الى عمه يخبره بأنه عقد النية على الزواج من فتاة قروية ، بعد اقتناعه بعدم وجود برازيلية تصلح للزواج من جبلي مهاجر ، وتربية أطفاله . زلق لسانه بعد زواجنا فقال لي بأنهن ممتازات في الفراش ، واكتشفت فيما بعد بأنه كان يصاحب خلاسية جميلة ، سمراء بلون البرغل ، فارعة الطول ، بطولي مرتان تقريبا - وتعبر عن ذلك بيديها وتضحك - وكانت قمة رأسي توازى صدرها الممتليء - ومرة ثانية صورت ذلك بيديها - لم يجروء على الاقتراب منها بعد زواجنا ، ولو فعل ذلك لذبحته بخنجر صغير مثلما تفعل البرازيليات ذوات الدم الحار نعود لقصة زواجنا . قامت امرأة عمه بزيارة عائلات القرية ، تسأل عن بناتهن ، ان كن مخطوبات أم لا ، وتتفحصهن بعين الخاطبة ، وكان

زوجها قد أوصاها بكتمان الامر ، لكن لسانها فلت ، وأصبح جميع سكان أهل القرية يعرفون بخطبة اسكندر المرتقبة ، وبينما الآباء يراقبون في استياء صامت ، شمرت الامهات عن سواعدهن ، فجملن بناتهن ، وزوقن دورهن ، وأخرجن أفضل مالديهن من شراشف مطرزة ، وابتهلت كل واحدة منهن في الكنيسة ، ونذرت الشموع والصدقات لو وقع اختيار المهاجر الغني على ابنتها ، فيخلصها من الضناكة . فرح عمه الذى صار يستقبل يوميا صفائح مليئة بزيت الزيتون ، والمخلل البيتي وقوارير الزعتر الاخضر وكرات الجبن الابيض والحلاوة الطحينية ، وامتلأ مخزن بيته بالمربيات على اختلاف أنواعها ، وانهالت عليه دعوات الغداء والعشاء . صحبتني والدتي الى مصور بيروتي مشهور ،واشترطت عليه أن تكون الصورة جميلة والا فلن تدفع أجرته . أتذكر جوابه ، وكأني سمعته وشهدته بالامس فقط ، بانه لن يضع رتوشا على صورة ابنتها لأنها جميلة ، فخجلت واحمرّ خداى . لازلت أحتفظ بالصورة حتى اليوم وأتفاءل بها . جمع عمه صورا كثيرة ، المنافسة كانت قوية ، بينهن فتيات جميلات ، بيض شقراوات وعيونهن ملونة ، لكن تلك كانت أيام الاسود والابيض ، فابرزت الصورة سواد عيني الكبيرتين ولمعان شعرى الفاحم . وضع عمه ثلاث صور لثلاث فتيات مع رسالة ، طلب منه فيها أن يختار واحدة منهن ، فاذا ظهرت عقبات تحول دون زواجه منها ، مثل أن يضع أهل العروس شروطا صعبة ، نحاول مع الثانية ، واذا لم نوفق مع هذه أيضا نجرب مع الثالثة ، يعني ... واحدة أصيلة واثنتان احتياط . أقسم لي بأني كنت أول واحدة وقع عليها اختياره ... يعني الاصيلة . ووفت أمي بنذورها . وبعد ضحكة قصيرة أطرقت ثم أضافت في حسرة : لو أنجبت له ولدا أو بنتا يرث النقود التي شبع هما وغما في الغربة ليجمعها ... لو اختار واحدة غيرى لملأت بيته بالذرية " . ولكن تعكر مزاجها موءقت ، فسرعان ما تبدأ بسرد حكاية ممتعة عن حياتهما في المهجر .

سينزل الانجليزى ثومبسون في الغرفة رقم "٦" واذا لم يأت نزيل آخر

فستكون له وحده طيلة اقامته في الفندق . حضر شخصيا في الأسبوع الماضي، توقعت أن يكون التفاهم معه صعبا لأنها لا تعرف من لغته سوى كلمات الترحيب والوداع ، ولكنه فاجأها بلغته العربية السليمة ، التي يتحدثها بطلاقة ، وبلكنة خفيفة محببة . قال لها بأنه مستشرق ، قضى أكثر من نصف عمره في المنطقة وانه تمتع مرات لا تعد بأكل الرز المفلفل بيده ، ولم يرفض قط قطع اللحم المدهن وعيون الذبائح التي كان يقدمه لها مضيفيه الكرماء ، وانه يتمنى البقاء فيها حتى نهاية حياته .

ثلاث غرف محجوزة لصادق حمزة ، اتصل قبل يومين قائلا بأنه يريد حجز جناحين . احتارت سلمى في الرد عليه ، فناولتها سماعة الهاتف . شرحت له بأن الفندق صغير ، ولا توجد فيه أجنحة ، ووصفت له الغرف وصغر مساحتها ، ولم تنس الحمامات المشتركة في كل طابق وعدم وجود مياه ساخنة جارية . تردد قليلا ثم قال بأنه سيتصل مرة ثانية في المساء ليبلغها قراره . راهنتها سلمى في سخرية بأنه لن يتصل ثانية لانها لم تترك واحدة من مساوىء الفندق لم تعددها له . بعد أقل من ساعة اتصل ليحجز ثلاث غرف ، ولما دعته لمعاينتها قال بأن ذلك غير ضروري .

قالت لنفسها بأنها كانت جولة قصيرة ، فعدد الغرف قليل ، لهذا لم نسمه الفندق الكبير ، كما يردد بركات هازئا . وضعت القائمة على طاولة مكتبها ، وحملت أصيص الورد الى مكانه المعتاد في زاوية المكتب ، ثم دلفت من الباب الموصل الى غرفة نومها التي تشترك فيها مع أختها .

رفعت سلمى اليها عينين ناعستين وقالت :

- هل نمت جيدا ؟
- أنت تعرفين بأني أنام مثل الموتى .

تثاوبت سلمى بملء فمها حتى دمعت عيناها . قالت :

- شكلك لا يعجبني . تبدين متعبة .

- وأنا لا يعجبني أيضا .

رفعت سلمى نفسها على يدها ، وقالت محتجة :

- ليس هذا قصدى ،لماذا تحورين كلامي ؟

جلست مارى على طرف سرير اختها وقالت :

- مزاح سمج ، كنت أفكر بالغد وهموم النزلاء .
- أنت لا ترتاحين الا اذا كان كل شيء منتظما كالساعة .

قامت مارى وهي تقول مذعورة :

- الساعة ، ذكرتيني .

× × ×

فتحت مارى باب غرفة أخويها المجاورة لغرفتهما بعد أن قرعت الباب قرعا خفيفا ولم تسمع جوابا . مرت بسرير أخيها الاكبر ، عطا الله . كان فراشه مرتبا في عناية حتى تشك بأن أحدا نام فيه ليلة البارحة . توقفت عند سرير بركات . شمت رائحة جسمه القوية وهي تلتقط مخدته المتدلية الى الأرض وتعيد ترتيب ملاءاته . قبل أسبوعين أحضر كشف درجاته النهائية لهذه السنة . أعلن في غير اكتراث وهو يخرجه من بين صفحات كتاب ويضعه على الطاولة في غرفة المعيشة ، بأنه لم ينجح . ولم تكن تلك أول سنة . وبعد أن دخل الى غرفته وأغلق الباب وراءه أجهشت أمي بالبكاء ، وهرعت سلمى الى جانبها لتحضنها ، وجرت دموعهما سوية على خدين متلاصقين . أما أنا فقد هربت الى غرفتي وسديت بابها ، وفتحت أمامي دفترا مهلهلا لأحد تلامذتي متظاهرة بتصليح الدفتر فيما لو دخل أحدهم علي . كنت أفكر بماذا سأرد عليهم لو طلبوا مني - وأنا الأخت الكبيرة - أن أفعل شيئا ما . قررت أن أتخذ موقفا صلبا ولو لمرة واحدة في حياتي ، ولن أدعهم يلقون على كتفي حمل المسوءوليات الثقيل الذى ورثناه عن

أبي العاجز قبل الاوان . وفكرت بما سأقوله لهم : ماذا تريدون مني بالضبط ؟ أتحدث معه كأخته الكبيرة التي تعرف كيفية التصرف مع الطلاب الكسولين ، أم أجلده مثلما كان يفعل أبي ، وهل أستعمل حزامه العريض الذى تشهد جلودنا على متانته ، أم خيزرانته الرفيعة المخزونة في السقيفة . يخيفني كلام بركات عن الفرص السهلة التي تنتظر من يقتنصها . استشف في كلامه عن الثروات التي لا يغنمها سوى الجريئون توقا الى المغامرة ، وأخشى أن تكون شهوة لص الى أسلاب . ثم أراجع نفسي ، فقد لا تكون مخاوفي في محلها ،فالعالم لم يعد كما أعرفه ... أما عطا الله ، الابن البار ، الذى يتمناه كل أب وأم ، قرة أعين ، وذخر لسنوات العجز والحاجة ، فقد ترك مدرسته قبل ثلاث سنين ليعمل صانعا في منجرة . كان ذلك قراره وحده . فاجأنا به في أحد الايام . قال لنا بأن صاحب منجرة في حي قريب وافق على تشغيله عاملا لديه بأجرة يومية . وحتى يبرهن لنا بأن لا عودة عن قراره أخبرنا بأنه وزع كتبه على أصحابه في المدرسة ، ومزق دفاتره وأوراقه . أشعر بغصة في حلقي كلما رأيته عائدا في المساء ، مهدود الحيل ، تمطر ثنايا ملابسه غبار الخشب الناعم ، وتفوح منها روائح المنجرة . يتناول عشاءه على عجل ويخلد الى فراشه قبل الجميع . سألته عما ينوى أن يفعله في المستقبل ، فهز كتفيه في استسلام ولم يرد . انزعج من صورته في مخيلتي . أراه فيها منكبا على لوح خشب ، يسحب منه مسمارا ،أو يطليه بالاصباغ . اتفقت مع والدتي قبل حوالي السنة على اقتطاع مبلغ صغير من مدخولنا الشهرى الضئيل لايداعه في حساب توفير باسمه . ولم أتراجع عن الفكرة حتى بعد أن تبين لي أن المبلغ وفوائده لن يكفي بعد عشر سنين لفتح منجرة صغيرة له . لم يضحك أحد منا عندما قال بركات بأننا محظوظون لأن عطا الله نجار وسيصنع لنا توابيت متينة لن تبلى حتى يوم القيامة .

التفتت أمها نحوها وابتسمت . أمها مثل أغلب النسوة الجبليات بعد الخمسين من العمر . بشرتها صافية ليس فيها أثر للتجاعيد ، قصيرة القامة ،

مترهلة قليلا بسبب الحبل المتكرر . رجلاها مقوستان ، ويداها صغيرتان لكنهما قويتان لانها قضت شبابها تكدح بجانب زوجها في الحقل ، وتنجب وتربي أولادهما ، وترعى شوءون بيتهما ، يختار الجبلي زوجته مثلما يختار الفلاح في السهل ثوره - من سلالة جيدة ليس فيها معتوهين ، وطاقتها على الصبر والتحمل لا تنضب حتى بعد نهار طويل من العمل الشاق ، القاصم للظهر . والمرأة الكاملة في نظرهم هي التي تجتمع فيها هذه الصفات مع مسحة من جمال .

قبلت ماري خد والدتها ، فدغدغت أنفها رائحة الصابون المعطر الذى تداوم على استعماله ، وتحتفظ في صندوقها الخاص بكمية منه تكفي لعدة شهور ، وكأنها تخشى نفاذه من السوق ، أو لعلها لم تعرف الصابون المعطر في صباها . هذا ما استنتجته بعد استماعي لاحدى محاضرات مديرة المدرسة المعادة ، والتي قالت فيها بأنها قرأت في كتاب عن علم النفس التربوى بأن نفس الانسان تتعلق بالاشياء التي يحرم منها أو تحظر عليه في طفولته .

قبلت جبين أبيها فرفع وجهه نحوها . نظر اليها وكأنه لا يعرفها . حدث ذلك في ظهيرة يوم شتوى قبل أربع سنين . سمعت والدتي التي كانت تعد طعام الغداء في المطبخ صرير الباب الخارجي عند فتحه ، وتعجبت من عودته المبكرة على غير عادة . خرجت لاستقباله ، فوجدته واقفا عند الباب . أخبرتهم وهي تصف المشهد بأن نظره كان معلقا على نقطة فوق الحائط المقابل - ويتهدج صوتها ويغرق في لجة الذكرى الحزينة ، وتمسح دمعة لم تنزل بعد على خدها ثم تستأنف كلامها - وكأنه لم ير الحائط من قبل أو صورة أبيه ، جدكم ، المعلقة عليه ، ثم انثنت رجلاه تحته ، وهوى الى الارض راكعا ، مثلما يفعل الكاهن أمام المحراب ، ثم وقع على جنبه دون أن يصدر صوتا . بعد شهرين بدأ يحرك أصابع قدميه ، لكنه لم يقف على رجليه الا بعد أشهر عديدة . لم تفارقه أمي في النهار أو الليل ، ولم نسمعها تتأفف أو تتشكى من العناية بزوجها الذى تحول الى طفل كبير عاجز . كانت تبدل ملابسه وشراشف سريره ، وتغسل عنها نفايات جسده مرتين في اليوم على الاقل . وتحمل جسده الضامر الى الحمام

لتصوبنه وتغسله وتنشفه مثل طفل رضيع ، وتدهن يديه ورجليه بزيت الزيتون الدافئ الذى قالوا لها بأنه أفضل بلسم لاعادة الحياة الى أطرافه المشلولة. كانت تردد بأنها لن تدعه يشعر بالضعة مادامت في جسمها ذرة من قوة ،وتتذكر قوله بأن الرجل الذى يفقد كرامته هو ميت واقف على رجليه . وتدريجيا استعاد قدرته على الحركة ، ولكن عقله الذى يعدل عشرة كما تقول أمي لم يعد كما كان من قبل ، ولم نعد نسمع صوته الأجش الذى كان يبث الرعب في أوصالنا أحيانا ، ويهمس في آذاننا بأحلى كلمات الحب والحنان في أحيان أخرى ، فقد أصبح والدى أخرسا .

تابعت مارى أباها وهو يغمس كعكة طويلة في كوب شاى بالحليب أمامه ، غطست مثل سفينة تغرق ومن حولها حطام من قطع الكعك الصغيرة.أسندها على حافة الكوب لتسيل منها قطرات الشاى الحليبي ، وارتعشت يده قليلا وهو يرفعها الى فمه المفتوح ، ولكن الكعكة المنتفخة تهرأت وسقطت على الأرض . كانت عيناه خاليتين من أى تعبير وهو ينظر الى كسرة الكعك علىالأرض، وكان البقية منشغلين بالحديث عن النزلاء وتناول افطارهم ، فلم يروه مادا يده نحو الكعكة ، ولكنها كانت أسرع منه . تناولت كعكة أخرى ودستها في كفه الممدودة . خفق قلبها بشدة للبريق الذى سطع في عينيه ، حتى كادت أن تصرخ معلنة للجميع ماشاهدته ، ولكنه لم يدم سوى لحظة واحدة ثم انطفأ، مثل شهاب مارق على صفحة سماء سوداء يمر في طرفة عين تجعلك تتساءل ان كان ذلك قد حدث فعلا أم انها تهيوءات بصر مجهد . عاد ليصوب كعكته نحو كوبه .

كان أبي فلاحا جبليا ، وحتى بعد أن اصبح مالكا محترما لفندق من طابقين ، ينزل فيه السياح ، ظل فلاحا في قرارة نفسه ، وكنا نشعر بشوقه الى حياته السابقة في حديثه عن بستانه الصغير . وكنت أحس أحيانا بأنه نادم على تغيير مهنته وطريقة حياته ، ولكن كبرياءه كانت تمنعه من الاعتراف بذلك . كان اذا سأله أحدنا أن يريه البستان يرفض قائلا بأنه لم يعد ملكنا.

أخبرتنا أمي بأن أحد جيرانهم أقنعه ببيع البستان وبناء الفندق . كان يزوره في بعض الأمسيات ليسهرا سوية ، قال له بان السياح سينزلون على جبلنا مثل السيل ، لأن حر الصيف في بلدانهم لا يطاق ،وسيأتون من كل حدب وصوب مثقلين بأموال النفط وثروات الحرب ، ولن تمضي سنتان أو ثلاثة على أبعد تقدير حتى يسترجع كل نقوده ، وعندئذ يستطيع - اذا رغب - استعادة بستانه ، وان يشترى كل البساتين حوله ليصبح واحدا من الملاكين الكبار الذين تسمع عنهم ولا تراهم الا نادرا . لم يقتنع في البداية ، ولكن صديقه ظل يرغبه ويمنيه بالثروة السهلة ، وقضاء يومه ساهيا لاهيا في مكتب فاره ، لا تهد حيله ضربات المعول في أرض لها قلب فولاذى وكرم بخيل ، اذا كبرت أشجارها وأثمرت - بمعجزة - انقضت عليها الحشرات والدويدات لتقضم أوراقها، وهزتها الرياح العاتية لتسقط أزهارها وثمارها قبل أن تنضج . لم يكن قرارا سهلا بالنسبة لفلاح سقى بعرقه كل كومة تراب في أرضه ، زرع شجراتها بيديه ، وقضى كل أمسية يصور لي عمله فيها بخطوط يرسمها على راحة يده .

قالت أمي : سألني مرة عن رأيي بالفكرة ، فأجبته بأننا عشنا من البستان سنين عديدة ، وان كانت عيشة كفاف ، ولكنه سترنا ودرعنا من غوائل الزمن ، واذا لم ينجح الفندق فسنخسر كل شيء . لم يعجبه رأيي ، فلم يسألني مرة ثانية . لم تكن صفقة خاسرة ، فالسعر كان جيدا ، والدفع نقدا ، هدم البيت ، وجاء بالعمال ليبنوا فندقه ، ولكن النقود نفذت قبل اكتمال البناء . وكانت سنة قحط ، فلم نجد قريبا أو صديقا يقرضنا المبلغ المطلوب. تبتسم ابتسامتها الساحرة ، وتخرج منديلا أبيضا لتسمح قطرات العرق التي تندى شفتها العليا في الصيف وتكمل : كنتم صغارا لا تدركون ماتعانيه ، ولم أكن قد ولدت سلمى بعد . خفت عليكم مما يخبئه لنا المستقبل من جوع ومذلة وتشرد . أفقت في صباح يوم شتوى . كان قد خرج مبكرا ، وقررت أن أواجهه بمخاوفي وقلقي . لم أنتظر رجوعه الى البيت لأني كنت متيقنة بأن تصميمي لن يصمد حتى عودته عند الظهر . خرجت مسرعة غير عابئة ببرد الصباح

القارس الذى يجمد أطراف الانوف وينفذ الى العظام . قصدت موقع البناء حيث يقضي معظم أوقات النهار ، واستمر على ذلك حتى بعد توقف العمل . وجدته منكبا على كومة أحجار ، يقلبها باحثا عن حجارة سليمة بينها ، انتبه لوجودى فالتفت الي مندهشا ، ولكنه لم يقل شيئا . كان يوما تشرينيا باردا ، تلبدت فيه السماء بغيوم كثيفة ، رمت بظلالها الرمادية على قمم الجبال ، ويغريك البرد القارس بالبقاء في حمى دارك ، متدثرة بلحاف ثقيل . كنت أرتجف من البرد والغضب والخوف في آن واحد . الغضب من أبيكم الذى أوقعنا في هذه الورطة ، والخوف منه لأني لم أجرب غضبه من قبل . سحبت نفسا عميقا ثم أضافت : لم أخاطبه بتلك اللهجة قبل أو بعد ذلك اليوم . كنت هائجة . فقدت السيطرة على أصابي ـ أنا الذى يضرب المثل بي لهدوء أعصابي ومزاجي الرائق ... انهمرت الدموع من عيني حتى قبل النطق بكلمة واحدة . لا أتذكر ما قلته في ذلك الصباح بالضبط ، ولن أكرره عليكم حتى لو تذكرته ، ولكني أذكر بأنه وقف صامتا بالقرب من كومة الحجارة ، يجول بنظراته بين الجبال البعيدة ، غير مصدق بان مثل هذا الكلام يصدر عن زوجته بديعة ، التي لم ترفع صوتها أمامه من قبل ، ولم تسمعه كلمة مغضبة ، والتي تفرح لكلمة ثناء منه مثلما تفرح امرأة بيروتية بأسوارة ذهبية . كان يحمل حجرا كبيرا مثلوما ، يؤرجحه بيده باتجاه كومة الحجارة المهملة . خفت أن يرميني به ، فرحت أسير يمينا ويسارا ، ولكنه كظم غيظه وتحمل كلماتي المريرة في صمت ، أو ربما أذهلته المفاجأة ... لا أعرف ، ولم أسأله عن ذلك أبدا . وبعد أن نفذت كلماتي استدرت وعدت الى الدار التي استأجرها لنا بعد هدم منزلنا . مشيت بسرعة وهرولت لأني تصورته يغذ السير ورائي ، يبربر ساخطا والحجر المثلوم لايزال بيده ، أيقظتكم من النوم ، وألبستكم معاطفكم فوق ملابس النوم ، وأخذتكم الى بيت أهلي . مر أسبوع ، ولم يحضر أباكم ، ولم يسأل عنا ، حتى خلت بأنه نسانا ، وأنبت نفسي على حماقتي وتهورى . قالت لي أمي، جدتكم : ياليته رماك بالحجر وأساح دمك ولا تركك أنت وأولادك . كانت غاضبة مني فانزلقت من يدها قارورة كبيرة ، محدثة دويا كبيرا ، وتناثر حطامها

ومحتوياتها على أرض المطبخ وتحت دواليبه . قرفصت جدتكم لتجمع الزجاج المهشم وتمسح بقع الزيت والزعتر من على الارض . حاولت مساعدتها لكنها دفعتني وقالت: نحن أناس أتقياء ، نخاف ربنا ، ولا نخالف أوامره . لقد نزل غضبه علينا بسبب عصيانك لزوجك الذى أقسمت أمام المحراب المقدس على طاعته . بكيت بحرقة ، وبكيتم أنتم لبكائي . ولكنه أتى قبل انقضاء الاسبوع الثاني : رأيته من وراء ستارة النافذة ، واقفا عند الباب ، متململا . رفض دعوة أمي لدخول البيت ، وسمعته يقول لها بأنه سينزل الى بيروت للبحث عن عمل ، وسيرسل وراءنا بعد أن يستقر ، وأضاف قبل أن يستدير ويبتعد " اذا أرادت بديعة " .

تجمعنا في العصر حول احدى طاولات الشرفة ، ابتداءا من الغد ستكون الشرفة للنزلاء فقط . ذكرتها والدتها بأن سقف الممر عند مدخل الفندق بحاجة الى تنظيف . اعترض بركات قائلا أن لا ضرورة لذلك لأن نزلائنا العجائز لايجرؤون على رفع رؤوسهم نحو السقف لئلا تعلق رقابهم على هذا الوضع - ورفع رأسه نحو سقف الشرفة حتى برزت حنجرته الضخمة . ضحكت والدتها وقالت :

- يجب وضع مصابيح أقوى في الممر .

قالت مارى محتجة :

- ومصروف الكهرباء !

قالت والدتها وهي تربت على يد والدها :

- أبوك هو الذى صمم الفندق .

الان ستحكي لنا قصة بناء الفندق . لقد روتها لنا مرات عديدة حتى بتنا نحفظها عن ظهر غيب . سبقها الى بيروت ، ولم يرسل وراءها الا بعد شهرين . وفي كل يوم انتظار كان يزداد قلقها من افتتان زوجها بامرأة بيروتية - أصغر منها سنا وأكثر جمالا ، ونساء بيروت كما تقول يعرفن اصطياد الرجال بشباك عيونهن المكحلة ، وأفخاخ كلماتهن العذبة ... وغير ذلك . وتنصحها أمها : يا ابنتي كبرى عقلك ! وديع رجل مخلص ولن يخونك . اختاره أبوك من بين

الذين تقدموا لخطبتك لأنه رجل ثقة ومعتمد ، فتسألها في غير اقتناع : لماذا لم يسأل عنها وعن أولاده بعد مرور أسابيع وأيام كثيرة ؟ كانت جدتكم حكيمة تداوى بالاعشاب ، وكانت النساء والفتيات يأتينها من قرى بعيدة ، طلبا لنصائحها التي تعمر البيوت ووصفاتها المجربة لتخفيف أوجاعهن وشفائهن ، وترفض قبول أجرة مقابل ذلك . وكانت تقول لابنتها القلقة من غياب زوجها بأنها لن تلومه اذا لم يعد يهتم بك بعد هجرانك لبيته وخروجك على طاعته التي أمر بها الرب ، ولكنه سيعود وان لم يكن من أجلك ، فمن أجل أولاده ، ولكن قلقها لم يسكن الا بعد عودته لاصطحابهم معه الى بيروت . أخبرها بأنه يعمل في الميناء . ومع أن مارى سمعتها تروى هذه القصة مرات لا تعد الا انها لم تفصح عن طبيعة عمله ، وتظن بأنها تستحي من ذكره لأنه عمل لا يليق بمكانة زوجها الاجتماعية السابقة كملاك لبستان واللاحقة كصاحب ومدير فندق . لاتتصوره مارى في لباس الحمالين ، لان ذلك لا ينسجم مع صورته التي انطبعت في ذهنها . تتذكره واقفا في وسط قاعة الطعام يصدر الاوامر الى النادل : احمل الصحون الفارغة من على المائدة رقم "٥" . استبدل شرشف المائدة رقم "٧" ، أما الاوامر والتنبيهات التي لا يجوز اسماعها للنزلاء فيهمس بها في أذنه . لذلك فان فكرة قيام أبيها بعمل بسيط مزرى غير مقبولة بالنسبة لها . كانت تتصوره رئيسا للعمال يقف عند مرسى السفن الضخمة مسندا حذاءه الملمع الى الوتد الذى يلتف حوله حبل سفينة غليظ ، يصغي لتوسلات الوسطاء الجمركيين ووكلاء التجار ، الذين يتسابقون لارضائه . ينادى على العمال للاسراع بانزال حمولة سفينة راسية ، ولا يترفع عن مساعدة عامل مرهق في حمل صندوق ضخم على عربة نقل . تصفه والدتي بأنه كان عنيدا ، رأسه أنشف من صخور الجبل . لم يتخل عن فندقه . كان يقول لها بأنه سيكمل بناءه ولو أفنى في ذلك كل قوته والسنين المتبقية من عمره . كان يقتطع نصف أجرته الاسبوعية ويقول لها : هذه لمصاريف الفندق . وهي لا تجروء على معارضته . وفي اجازته السنوية

القصيرة كان يصعد الى الجبل ليكمل بناء الفندق . وبعد اكتماله استمر يعمل في الميناء سنتين أخريتين ليجمع القسط الاول من ثمن أثاث الفندق. قال لها في أحد الايام بأنه طلب من المعمار الذى وضع أساسات الفندق أن تكون قوية لتحمل خمس طوابق وليس ثلاثة فقط ، وانه متأكد بأن أولاده وأولادهم من بعدهم سيرفعون الفندق ليكون أكبر وأجمل فندق في الجبل . وتضيف والدتي بأنه مثل كل الجبليين . وفهمت مغزى كلامها لاني أنتمي الى الجبل أيضا ، حيث الهواء الرقيق والشعور الخادع بالعظمة الذى يتولد لدينا عندما نقف فوق روؤس الجبال وننظر الى المدن الكبيرة التي تفترش السواحل، فنراها قميئة مثل نماذج مهندسي العمران ، وسكانها أصغر من الأقزام ، وهذا يجعلنا نحلم بجرأة نابوليونية ، ونعمل بهمة مردة سليمان .

ارتفع صوت والدتها محذرا :

- سيأتي وقت قريب لن تجدوا فيه مارى بينكم ، لأنها ستكون مع زوجها ، في بيتهما ، فكيف ستتدبرون أموركم بدونها ؟

أضافت قبل أن أتبين الموضوع ، مخاطبة سلمى وبركات :

- سيزحل عقلي من أنانيتكم . هل هذه تربيتي ! كلما طلبت منكم القيام بعمل بسيط قلتم : مارى ...

ثم خاطبتني في حسرة : " مسكينة يا ابنتي ، يجب أن تفكرى بنفسك . كوني أنانية مثلنا " . وعادت توجه كلامها الى سلمى وبركات :

- لاتتركوا مارى تذوب هكذا . ستصبح مثل الخيال .

قال بركات مبتسما :

- لا توجد فتاة أجمل من أختي مارى ، قلبا وقالبا .

نظرت مارى الى أخيها في عتاب صامت وخاطبته في سرها : لا داعللمجاملات يا أخي الصغير ، الذى يحب المزاح ، ويظن أن الحياة مزحة ثقيلة ، وانه

أدرك سرها أخيرا . أنا أعرف نفسي جيدا ، ولو سمعت هذا الكلام من أحد غيرك لاعتقدت بأنه يسخر مني ... وعلى ذكر الزواج ستتذكر أمي الطبيب جبور ، الذى تأمل أمي بتزويجي منه . تجاوز عمر جبور الخمسين ، ولم يتزوج ، واحتار أهل القرية في تفسير ذلك . ويقال ان الخورى السابق فاتحه بالموضوع ، ونصحه بالزواج معددا له مزاياه ، ويقال أيضا بأن بعض رجال القرية طلبوا منه ذلك، لأنه كان وبحكم مهنته ، يتحسس ويفحص مواضع من زوجاتهم ، لم يروها في وضح النهار أو عتمة الليل الا لمحا . شكره الطبيب على نصيحته ، ولكنه لم يعمل بها حتى الان .

نهضت وقالت :

- ساری ان كانت عبير بحاجة لمساعدة .

تعرف بأنهم لا يتعمدون مضايقتها بمناقشة موضوع زواجها المتأخر والمتأخر جدا ، ولكنها تشعر بالمهانة وكأنها بقرة يبحثون لها عن ثور مناسب . عبرت من فوق السلم الخشبي ونظرت الى عبير الواقفة عند أعلى درجات السلم ، ملوحة بمكنسة طويلة مثل ساحرة في مهمة ليلية .

- لا تقفي تحت السلم والا سيمتلىء شعرك بنسيج العنكبوت .

سألتها ماری في تقزز :

- والعناكب ؟

- أحس بها تدب على ظهرى

تراجعت ماری الى الوراء مبتعدة عن مهبط العناكب . قالت :

- انزلي ياعبير ، اتركيهم .

ترددت ضحكتها في سقف الممر ، ضحكة ساحرة ماجنة وقالت :

- بسيطة ، أنا لا أقرف بسهولة .

اقشعر جلدها من حديث العناكب فانسحبت الى مكتبها . كانت تنظم أوراقها عندما سمعت أختها تناديها . اضطرت للوقوف تحت السلم للاستفسار عما

تريده منها ، ورغما عنها فكرت بالعناكب الغاضبة بسبب تخريب بيوتها الخيطية.
قالت سلمى وهي تشير برأسها نحو مدخل الفندق :

- السيد خليل عبود وابنه .

سمعت بالاسم من قبل ولكنه لم يقترن بصورة في ذهنها .

قالت :

- من هو ؟
- انه نزيل وغرفته محجوزة .
- تذكرته ... ولكن لماذا أتى في هذه الساعة ؟ ألم تقولي له بأننا لا نستقبل النزلاء قبل الغد ؟
- قلت له ذلك .

ثم استدارت وابتعدت .

كان رجلا أسمر اللون ، غليظ الملامح ، على خده الايسر آثار جرح أو مرض جلدى ، استقبلته بابتسامة عريضة . رد على تحيتها وقال بأنه يأسف لازعاجنا .
قالت له عبر البوابة الحديدية المشبكة :

- أبدا ، ولكن أرجو المعذرة ، فالفندق غير جاهز لاستقبال النزلاء.

اختفت الابتسامة من على وجهه بعد أن أدرك بأنها لا تنوى السماح له بالدخول . سألها متحفزا :

- ماذا أفعل الآن؟

لم تجبه على الفور . كانت محتارة بين التمسك بموقفها واغضابه أو السماح له بالمبيت في الفندق ، سألها :

- وهؤلاء ، أليسوا نزلاء مثلي ؟
- هؤلاء أهلي ، أمي ....

قاطعها :

- يا سيدة . كل ما أطلبه هو فراش لي ولابني .

شاهدته يمد يده الى الخلف ويسحبه من يده دون أن يلتفت . وقف الولد بينهما مطأطئ الرأس ، شعره طويل ومهمل ، يغطي جبهته وحاجبيه . ذكرها المنظر بمعلمة معروفة بقسوتها في معاملة تلميذاتها ، شاهدتها يوما ممسكة بتلابيب تلميذة صغيرة ، تهزها مثل دمية مصنوعة من خرق . خاطبته وهي تفتح الباب المعدني :

- تفضل ، ستعذرنا لأن الفندق لايزال في حالة فوضى ، تمتم وهو ينحني لحمل حقيبته المستهلكه : " بسيطة ، بسيطة ".

وقفت والدتي لترد على تحيته المقتضبة ، لكنه لم يتقدم لمصافحتها. أرشدته ماري الى غرفته ، وأعلمته بمواعيد العشاء . كانت بداية موسم غير مرضية بالنسبة لها . لامت نفسها لأنها لم تكن صارمة ، فليس الخطأ خطأها ان يجيء نزيل قبل موعد افتتاح الفندق ـ ولو بيوم أو حتى ليلة واحدة . كان عليها أن تقول له بحزم لا يلين بأنها آسفة ولكن الفندق مغلق ، ولن يفتح أبوابه للنزلاء قبل صباح الغد . ابحث لك عن مكان آخر تقضي فيه هذه الليلة . توجد فنادق عديدة مفتوحة في المدينة . وسنرحب بك غدا منذ الفجر ، أما الليلة فنحن آسفون ، فالنظام وضع لنتقيد به ، وحتى لو أصر وهدد بالغاء حجزه فلن تغير موقفها . هكذا يجب أن تكون الادارة ، ولو كان أبوها يدير الفندق لعامله هكذا .

تفادت النظر الى عيونهم وهي تعود الى الطاولة على الشرفة . خشيت أن ترى فيها مايدور في أذهانهم ، بانها لم تملأ الفراغ الذى خلفه اعتزال أبيها لادارة الفندق .

سألتها والدتها :

- هل أعجبته الغرفة ؟

سبقها بركات محتدا :

- اذا لم تعجبه الغرفة فليتفضل ، الباب مفتوح . يأتي قبل

الموعد ولا تعجبه الغرفة !

قالت ماري :

- الرجل لم يقل ذلك . ماذا كان يجب علي أن أفعل ؟ اتركه واقفا عند الباب وأقول له : اعذرني ياسيد ... دقيقة واحدة . استشير أهلي ، ثم أعقد معكم موءتمرا لنقرر ماذا يجب أن نفعل . حاولت صرفه بلباقة لكنه أصر مثلما رأيتم وسمعتم . ثم أين سيذهب في هذه الساعة ؟ سمحت له بالمبيت هل أخطأت ؟

انبرت أمها للدفاع عنها :

- لو كان أبوك مكانك لفعل نفس الشيء .

وقفت ماري عند مدخل قاعة الطعام . كان خليل وابنه يتناولان عشاءهما في القاعة المضاءة بمصباح واحد . انزعجت من ذلك ، فالخدمة يجب أن تكون كاملة غير منقوصة ، سواء كان النزلاء مائة أم اثنين ، ولن تدعهما يأكلا في العتمة لتقتصد في مصروف الكهرباء . التفت خليل عندما أضاءت الثريتين الكبيرتين ، وحياها بهزة رأس . لو كان أبوها حاضرا لمشى اليهما وسألهما ان كان العشاء قد أعجبهما . كان يعتقد بأن ذلك واجب على أرباب الفنادق الذين يحترمون مهنتهم ، وربما ستفعل ذلك غدا أو بعد غد عندما تمتلىء القاعة بالنزلاء المرتقبين.

× × ×

جلس خليل على سريره ، وتحسس الفراش فوجده أفضل من الفرش التي أراح جسده عليها في السنتين الماضيتين ، منذ اضطراره الى ترك الشقة الصغيرة في رأس بيروت . تفحص الغرفة ومحتوياتها بعينين ناقدتين . لاحظ جدرانها الصفراء العارية التي يضفي عليها ضوء المصباح الضعيف كآبة غرف المستشفيات

الحكومية ، ومر بصره على خزانة الملابس الواقعة على ستة أرجل رفيعة ، وعلى كرسي الخيزران والطاولة الصغيرة . كل أثاث الغرفة قديم ، وآثار الاستعمال الطويل بادية عليه ، وكأن أيادي عدة مالكين قد تداولته ، ولكنه لم يكترث فقد شاهد في الشهور الاخيرة أثاثا أسوأ من هذا بكثير ، وتنقل بين فنادق يخشى ترك ابنه فيها لوحده أكثر من عشر دقائق . ولكن هذا الفندق محترم ، وأصحابه لطفاء ، وان كانت المرأة التي استقبلتني متوترة الاعصاب ، وكأنها لم تمارس عملها من قبل ، أو لأنها عانس أو مطلقة أو أرملة - مثله .

رفع بصره الى الخطاف المثبت في سقف الغرفة ، وقد ربط فيه سلك كهربائي رفيع يحمل المصباح العاري ، وفكر بأن حياته لم تعد مجدية مثل هذا الخطاف الذي وضعوه ليحمل ثريا ، فانتهى علاقة غير ضرورية لمصباح . لو علقت عليه حبل مشنقتي فسيتذكره الناس . يهمس الوسواس في عقله أن عذابه لن يطول سوى لحظات معدودات ، وبعدها سينعم بالرحة ، وماذا سيخسر لو فعل ذلك؟ كل ما ينقصه حبل متين يتحمل وزنه الذي نقص كثيرا في الاشهر الماضية بعد أن فرض على نفسه تقشفا صارما حتى لا تنفذ نقوده بسرعة . يصعد على الكرسي ، ويربط رجل منامته بالخطاف بعد أن يربط نهايته الاخرى حول رقبته ، ثم يرفس الكرسي ،ولكن الذي سيحدث على الأرجح هو أن كرسي الخيزران الهش هذا لن يتحمل وزنه ، وسيتحطم ويكسر ساقيه بدلا من رقبته . " أراد اختصار الطريق والهروب من المحبسين دفعة واحدة " . تذكرت قول طبيب المنطقة الذي استدعيناه لاسعاف سجين حاول الانتحار بشوكة نخل طويلة أدخلها في رسغه ولكنها لم تصب شريانا أو وريدا وظلت مغروزة في يده ، وما أن عرف زملاوءه السجناء حتى علت صيحاتهم باللعنات والشتائم على مدير السجن والسجانين ، مما دفع المدير الى اصدار أمر بمضاعفة عدد الحراس والغاء الرياضة الصباحية . وضع الطبيب حقيبته السوداء على كرسي في مستوصف السجن ، وبدأ يفحص يد السجين الذي ادعى متبجحا بأنها لا توءلمه ، وانها ليست أول مرة تدخل شوكة نخل في جسمه

لأنه فلاح وابن فلاح ، وأول شيء تعلمه بعد المشي هو صعود النخل وتحمل وخزات أشواكه . نهرته عن الكلام لئلا يزعج الطبيب ، فالتفت الطبيب الي ، وراح يشمر ردنيه في عصبية ، ثم انفجر غضبه متهما ادارة السجن بمعاملة السجناء معاملة رديئة ، واهمال نظافتهم حتى تحولت أجسامهم الى مزارع للقمل والقراد. وكان السجين يبتسم لحديث الطبيب الغاضب عن رائحة المراحيض المزمنة في الزنزانات وعن السجناء الذين يحضرون الى المستوصف مشتكين من حشرات دخلت في آذانهم أثناء الليل ، وانها ظلت تطن داخل روءوسهم حتى كادت تصيبهم بالجنون ، وانهم حاولوا اخراجها بشتى الوسائل ، بأصابعهم ولفائف من ورق ومن قماش وعيدان قذرة التقطوها من الارض ولكن دون جدوى ، ويتوسلون اليه أو الى الممرض لكي يخرجها قبل أن تصل الى أدمغتهم وتقتات عليها . لم أعرف جوابا ، فقد شلت لساني الرهبة التي تغشاني في حضرة الاطباء . لم أكن أنوى الدفاع عن السجن وادارته ، بل كنت سأطلب منه ، وبلطف ، مرافقتي الى مكتبي لأسدى له نصيحة مخلصة بأن لا يتفوه بمثل هذا الكلام أمام غرباء ، حتى لا يصل الى أسماع من هم قادرين على محق أحلامه ، أو تحويلها الى كوابيس ، أسوأ مما تراه عيناه في هذا السجن .

قام من مكانه على السرير وجلس على كرسي الخيزران.أسند يديه على الطاولة الصغيرة . قال لنفسه ان موظفا بسيطا لن يقبل بطاولة بهذا الحجم . لم تكن الطاولات التي جلس وراءها فخمة مستوردة مثل طاولات المديرين الكبار، ولكنه كان محسوبا على أصحاب النفوذ والسلطة ، يقف الموظفون الصغار والمراجعون صاغرين بين يديه ، فيأمر وينهي ، يوافق أو يرفض ، ويخرجون من مكتبه اما فرحين داعين له جهارا بالتوفيق وطول العمر ، أو قانطين يتمتمون باللعنات المرة والدعوات عليه . لم يكن شريرا ، ولم يسىء لاحد مقتصدا ، ولكنه كان موظفا متفانيا ، مطيعا ، يوءدى واجباته ، وينفذ أوامر روءسائه ، كما تشهد بذلك تقارير الاداء المحفوظة في ملفه . كان في بيروت

عندما سمع بالخبر ، ولم يكن قد مضى على وصوله هو وابنه أكثر من شهرين ، مكلفا بمهمة رسمية وسرية . وشعر بألم التيتم للمرة الثالثة في حياته ، وبعد الصدمة الاولى جاءت مرحلة خداع النفس ، فصار يمني نفسه بأنها زوبعة تموز قائظ ، وسرعان ماتزول ، ويعود كل شيء كما كان . أليست الدار مأمونة كما كانوا يرددون ، وقد حاول غيرهم في الماضي فكان نجاحهم موءقتا وفشلهم في النتيجة ذريعا ، فلماذا أقلق ؟ ومرت الاسابيع والشهور ، وكل يوم يمر يأتي بخبر جديد ينقض حبل أمنياته المتوهمة ،حتى انقطع فسقط في هوة اليأس والقنوط . وطاويط تعاسته تنشط في الليل ، تحرمه من النوم ، وتسلبه صبحه الاتي .

× × ×

رن جرس الباب قبل أن يفرغوا من تناول افطارهم . لم يكن الطارق نزيلا مبكرا وانما الطبيب جبور ، الذى قال لها ، وكأنه يعتذر عن زيارته المبكرة ، بأنه حضر للاطمئنان على صحة مريضه ، أبيها . أخبرها وهما يدخلان الفندق بأنه مر بشاحنة مقلوبة على جانب طريق الجبل ، وقد تناثرت منها صناديق الفاكهة المحطمة ، نجا السائق بأعجوبة . وجده واقفا قرب شاحنته يلعن حظه العاثر . أراد أن يضمد جرحا في ذراعه ، لكنه رفض قائلا بانه مجرد خدش . أضاف الطبيب مشتكيا بأن السياقة على طريق الجبل لم تعد آمنة بسبب ازدياد عدد الشاحنات ، وانها بحاجة الى تنظيم . تصورته مارى يقود سيارته القديمة في ارتباك سائق مبتدىء . قالت في لهجة جادة :

- كلامك لن يعجب التجار .

أجابها بسرعة وحدة :

- وأنا لا تعجبني بعض أساليبهم في التجارة .

جبور هادىء ، لم يشاهده أحد يفقد السيطرة على أعصابه أو يتفوه

بكلمات غاضبة الا في مناسبة واحدة ،عندما بلغه أن ادارة مستشفى في بيروت رفضت ادخال أحد مرضاه الا اذا دفع مبلغا كبيرا على الحساب ، وانهم طلبوا منه في مستشفى آخر احضار شهادة فقر حال ، ولكنه مات قبل أن يحصل على هذه الشهادة . ويروي الممرض الذى يعمل في عيادته بأنه سمع صيحة غاضبة من داخل مكتبه وصوت تهشم زجاج ، ووصف ماراه قائلا : وجدته جالسا وراء طاولة مكتبه ورأسه بين يديه ، وكان اطار شهادته المعلقة على الحائط محطما ، وزجاجها مهشما . ويضيف المعجبون بالطبيب من أهل القرية بأنه بكى في ذلك اليوم حزنا على مريضه ، بينما سخر البعض منه قائلين بأن طيبته زائدة ، ووصفه بركات بأنه أحمق ، ولكنهم محظوظون بوجوده ، لأن رزق الهبل على المجانين ، ولكن أحدا لم يصدق الاشاعة التي لم يعرف مصدرها بأن جبور عاد الى قريته ليس حبا بأهلها وانما فارا من خطأ جسيم ارتكبه في علاج طفل رضيع مما أدى الى وفاته .

استقبلته والدتها بحفاوة بالغة ،قامت له ، وعاتبته على انقطاعه عن زيارتهم ، مع أنه لم يمض أسبوع على آخر زيارة . أمسكته من يده لتجلسه بجانبها ، على الكرسي الذى كان يجلس عليه بركات ، وأرغمته بيدها الثانية على التخلي عن حقيبته التي ناولتها الى بركات أيضا . وضعت أمامه صحنا كبيرا فارغا ، سرعان ما ملأته باللبن المصفى التي تعده بنفسها وبشرائح من الجبن الابيض الحلو ، وزيتون أخضر ، وطلبت من بركات أن يحضر لضيفهم صحن بيض مقلي ، ولكنه استوقفه مقسما بروح أبيه بأنه تناول افطاره قبل خروجه من بيته ، ولكنه لا يمانع بفنجان قهوة .

كانت نظرات والدتها الى جبور تنطق بالاعجاب والتقدير الذى تكنه له. منذ زمن بعيد توقفت جميع الامهات في القرية عن التفكير به كعريس مناسب لبناتهن ، وحتى العوانس يئسن منه ، ولكن والدتها لم تفقد الامل بعد،ولاتزال تنتظر ذلك اليوم السعيد الذى سيتقدم فيه لخطبة ابنتها ، وهي مطمئنة تماما

بأن رجلا عاقلا مثله سيكتشف حتما بأنه لا يستطيع العيش دون زوجة تؤنس وحدته وترعى بيته وتنجب له أولادا - قبل فوات الاوان - وهي تعتقد أيضا بأن فتاة راجحة العقل مثل ابنتها ، لا يمكن أن ترفض عريسا مثله لذا فلم تكلف نفسها أن تسألها رأيها فيه .

علقت سلمى ذات يوم في خبث متعمد :

- جبور قديس لذا لم يتزوج ، ومن يرغب بالزواج من قديس على أية حال .

فبان الامتعاض في وجه أمها ، ولكنها لم تعر كلامها أى اهتمام لأنها صغيرة ، ولا تفهم هذه الامور ، كما كانت تقول ، أما بركات فقد قال في حسرة :

- لو يبيع الزيتون والمربيات التي يحصل عليها من المرضى لصار ثريا .

سألها جبور وهو يعيد فنجان القهوة الى صحنه عن صحة زوجها فأجابته في أسى بأنه بخير ولكن لا جديد في حالته . في الاول كانت تراقبه طوال اليوم ، بدقة واخلاص شرطي سرى . وحين يحضر الطبيب لعيادته تقدم له تقريرا وافيا ومفصلا ، لعلها تسمع منه بشارة قرب اكتمال شفائه . وكان ينصت لها باهتمام ثم يقول لها بأن ذلك مشجع .

وقفت خلفه ، وهزته من كتفه برفق فالتفت اليها ، خاطبته مشيرة الى الطبيب :

- قم معنا حتى يفحصك الطبيب ، وسنعود لتكمل افطارك .

لكنه تجاهلها ، وعاد لتناول طعامه ،فوضعت يديها تحت ابطه وجذبته الى الأعلى ، لتجبره على النهوض . ترنح قليلا أثناء وقوفه ، فصرخت مارى محذرة . اسندته والدتها و قادته من ذراعه الى خارج القاعة .

سيقضي والدها الموسم محبوسا في حجرته ، لايخرج منها الا حين يذهب الى الحمام . كلهم متفقون على ضرورة ذلك ، وتقبلوه على مضض لأن النزلاء يأتون الى الفندق للراحة والاستجمام والتمتع بمناظر الطبيعة وليس لروءية والدها المريض العاجز .

× × ×

بعد مغادرة الطبيب بقليل وصل صلاح صابر . كان يرتدى قميصا صيفيا بنصف ردن وبنطلونا داكنا . قال لها متفاديا النظر الى وجهها بأنه لا يصدق عينيه لأن السنين تمر وهي لم تتغير . ضحكت في سعادة ، على الرغم من أنها لم تصدق مجاملته المبالغ فيها جدا ، فأضاف بأنه يود لو كان مثلها ، ولكن الحقيقة المرة التي لا يمكن اخفاءها هو أنه بدأ يشيب ، وأدار رأسه ليريها الشعرات البيض التي غزت فوديه ، وتحسس شعره الذى انحسر قليلا عن مقدمة رأسه كاشفا عن شامة سوداء كبيرة . قال في لهجة حادة بأنه يمر في مرحلة صعبة يصارع فيها حتى لا تتغلب همومه الشخصية على احساسه بهموم الاخرين،وانه اذا خسر المعركة فسيفقد كل شيء ، ولن تكون لحياته قيمة . هزت رأسها في تفهم مصطنع وتمنت له التوفيق .

× × ×

على بعد مئات الاميال من الفندق كانت الهام وبلقيس تجلسان في حافلة قديمة تقطع بهما الصحراء . كانت رحلة متعبة بدأت في بغداد ،وأصيب أكثر الركاب وخاصة المتقدمين بالسن منهم بهمود الحركة ، الذى يقارب الاغماء ، بسبب الاهتزاز المتواصل للحافلة القديمة ، وهواء الصحراء الحار الذى يلفح الوجوه ويحمر العيون ، ولكن بلقيس كانت عابسة منذ أول لحظة ، ولم تكف عن التذمر من تأخر انطلاق الحافلة حتى بعد أن تركت بغداد وراءها ، وتأففت من الحر الذى قدم مبكرا في هذه السنة ، منذرا بصيف قائظ . حاولت

الهام مواساتها ، فقالت لها بأنهما محظوظتان ، وسيحسدهما جميع معارفهما لأنهما سيقضيان الصيف متمتعتين ببرودة الجبل ومناظره الخلابة ، فردت عليها: ولماذا يحسدوننا ، هل سرقنا أم نهبنا أو ربحنا اليانصيب . انشغلت عنها الهام بمراقبة الركاب الاخرين الذين كانوا يصلون تباعا ، حاملين حقائب كبيرة دون عناء ، مما يدل على أنها غير مليئة ، ولكنهم سيعودون بها وقد امتلأت بالملابس والهدايا التي سيشترونها من أسواق بيروت .

كان مشهدا عاطفيا ، قبلوا وجنات بعضهم البعض المبللة بالدموع ، ومسحوا أنوفهم الرطبة ، ولم يتوقفوا عن الكلام الا لينهروا أطفالهم الفرحين بخروجهم المبكر من بيوتهم على غير عادة ، والذين كانوا يلعبون حولهم غير مدركين لمهابة الموقف ، ثم تبينت وسط اللغط صوت بلقيس ، عاليا ، ممتدا ، كما تسمعه في غرفة المعلمات القريبة من مكتبها فترتفع الرؤوس عن الدفاتر ويسود صمت الترقب والقلق . وجدتها واقفة وسط مكتب شركة النقل تكيل الانتقادات الى أصحابه والعاملين فيه لأنهم لم يفكروا براحة المسافرين الذين يضطرون للانتظار ساعات بسبب عدم الالتزام بمواعيد السفر ، فلم يضعوا مقاعد كافية ، ولم يزودوا المكان بماء بارد . أشفقت على مدير المكتب الذى وقف أمامها مرتبكا مثل تلميذ مذنب . قبل أن نصل الحدود اشتكت من وخزات ألم في خاصرتها ، وقالت بان الحصيات المزمنة في كليتها اليسرى تحركت بسبب اهتزاز الحافلة ، وتنبأت بأنها ستبول دما لمدة اسبوعين على الاقل . ولن تهنأ بساعة راحة واحدة في المصيف ، وكان من الافضل لها لو قرت في بيتها ، لكانت قد ادخرت نقودها ، وسددت بها قسطا من أقساط البيت الذى اشترته بالرهن ، بدلا من تبذيرها في شراء ملابس رديئة بضعف قيمتها الحقيقية . وبعد أن فشلت في تلطيف مزاجها بالكلام لجأت الى وسيلة أخرى ، فأخرجت من حقيبتي الصغيرة أصناف الطعام التي تزودت بها للرحلة : كعك بالسمسم من النوع الذى تحبه ، وتطلب مني عدة أصابع منه عندما تجوع في المدرسة ، وجبن أبيض ، وحلاوة ، ومخلل ، وخبز باللحم . أشاحت بوجهها وهي تدفع يدى الممدودة بالأكل

بعيدا عنها ، قائلة بأن نفسها مسدودة ولا تشتهي الاكل ، ولكن بعد برهة قصيرة مدت يدها وتناولت قطعة مخلل ، وقربتها من أنفها ، وكانها تريد شمها ، ثم أعادتها الى الزجاجة في اشمئزاز . قالت شاكية : سأموت لو أكلتها . كل واحدة بحصى . قلت لها مشجعة : هذا وسواس . الاكل لا يضر ، وستشعرين بالتحسن بعد تناولك الطعام ، فاقتنعت . وتذكرت وهي تقطع رغيفا الى نصفين الايام الخوالي لحافلات المسافرين ، عندما كانت حافلة النيرن تقطع بادية الشام في حر تموز المذيب للاسفلت دون أن يشعر المسافرون بأى تعب ، فالمقاعد وثيرة ، والستائر مخملية ، والماء بارد مثلج ، والوجبات من عدة أصناف من الطعام الساخن والحلويات ، يقدمها ندل مهذبون على طريقة الانجليز ، يرتدون ملابس نظيفة ومنشاة ، يخالهم من لا يعرفهم عرسانا . وبعد أن أتخمت نفسها بالاكل قالت بأنها نعسى ، وأغمضت عينيها وراحت في سبات عميق ، وبقيت أنا مستيقظة أراقب الصحراء اللامتناهية من النافذة ، وأفكر بالمصيف .

في دمشق احتدت على سائق سيارة الاجرة في موقف سيارات بيروت ، واتهمته بالجشع لانه أصر على تحصيل اجرة كاملة منهما مع أنهما سينزلان في الطريق ، كما رفض توصيلهما الى الفندق . وقال لهما : اذا لم تدفعا أجرتي كاملة فابحثا لكما عن سيارة أجرة أخرى تقلكما الى بيروت وعن حمال لينزل حقائبكما من على ظهر السيارة . نصحتها بالقبول ، فلم تعرني أى اهتمام ثم هدأت فجأة ، ورضخت للأمر الواقع .

كان الازدحام شديدا عند نقطة الحدود . جمع السائق جوازات سفرنا ، وغاب أكثر من نصف ساعة ، ثم عاد يحمل جوازاتنا ، ماعدا جواز سفرها ، وقال بأن المسؤول أصر على حضورها شخصيا ، فذهبت متعثرة ، ورافقتها . بعد أن قارن بينها وبين صورتها في الجواز سألها ان كان لها أقارب في لبنان

فأجابت بالنفي . لم تقل شيئا عندما رمى جواز سفرها باتجاهها . كظمت غيظها وهي تلتقطه من خلال الكوة الصغيرة . وطيلة الجزء المتبقي من السفرة ، أفرغت مرارتها في أذني . قالت : انهم يفعلون ذلك عمدا . اذا كانوا لا يريدوننا فلماذا يسمحون لنا بزيارة بلدهم . لولا السياح لماتوا من الجوع التفت السائق نحوها ، فتوجست شرا . خفت من تكرار ماحدث في السنة الماضية عندما لم يتحمل سائق سيارة أجرة كلامها اللاذع فقال لها : اذا لم تعجبك بلادنا ، صيفي في بلادك . حدث كل شيء بسرعة ، صراخ بلقيس الغاضبة ، صوت مكابح السيارة ، وصفق أبواب . وجدت نفسي بينها وبين السائق . كانت تحمل حقيبتها عاليا فوق رأسها ، مهددة بها السائق ، وصارخة بأنه ناقص أدب وبلا تربية ، وانها ستؤدبه . ولولا تدخل الناس الذين أمسكوا بالسائق الهائج ، ومنعوه من الفتك بنا ، لما خرجنا احياء من تلك المجابهة .

أخيرا وصلتا الى نهاية الرحلة المضنية . وفي لحظة دخولهما الى غرفتهما المشتركة ، وضعت بلقيس حقيبة يدها على السرير القريب من النافذة في اعلان صريح بالاحتلال . لم تعترض الهام التي راحت تخرج ملابسها القليلة وأدوات حمامها وزينتها من الحقيبة ، بينما استلقت بلقيس بملابس السفر على سريرها ، وهي تئن وتشكو من خاصرتها . تنبأت بصوت ضعيف ولهجة شؤم: واضحة من أولها . ستكون صيفية سوداء مثل لون حظي ، ثم أغمضت عينيها ،وبعد قليل انقطعت تأوهاتها وانتظمت أنفاسها . توقفت الهام عن ترتيب ملابسها في الخزانة حتى لا توقظ زميلتها . كانت مرهقة هي الاخرى وقدماها تستعران ألما وكأن كل أوجاع السفرة قد استقرت فيهما ، ولكن فرحتها بالوصول كانت أقوى من أوجاعها ، وودت لو تنهض صاحبتها لينزلا الى الشرفة أو البهو ، ستغتاظ لو تركتها نائمة ونزلت وحدها . استسلمت في امتعاض وتمددت على السرير .

بعد قليل انتبهت بلقيس على غطيطها . فتحت عينيها الصغيرتين اللتين تصفهما معلمات مدرستها بالحقودتين مثل عيني قطة جائعة . حملقت في دهشة :

- غفوت ! السفرة هدت حيلي .
- أنا مثلك ،ولكني لست قادرة على النوم .

حكت بلقيس رأسها وقالت :

- رأسي يأكلني . عدتني الفتاة الصغيرة التي كانت جالسة مع أهلها خلفنا في الحافلة . كانت تضع رأسها على المقعد بالقرب من رأسي . يجب أن أغتسل . أضافت وهي تروح بيدها :
- الجو حار ، وكأننا لم نغادر بغداد . أنا بحاجة الى هواء، سأختنق . دخيلك يا الهام ، قومي وافتحي النافذة .

فتحت الهام النافذة ، ووقفت تراقب الشارع المقفر ، ثم سمعت هدير شاحنة مقتربة . وقبل أن تراها صات بوقها مرتين ثم مرت من أمام الفندق . التقت عيناها بعيني السائق الفضوليتين ، وشاهدته يرفع يده في دعوة خليعة ، فأفلتت الستارة من يدها ، واستدارت لتواجه سيلا جديدا من شكاوى بلقيس : حر ، وضوضاء ،واضح من أولها . سيكون صيفا أسودا مثل لون حظي . خاطبتها الهام :

- طولي بالك . أين هذا الحر ؟ سأطلب من ماری لحافا لأتدثر به في الليل . لا تدع الامور التافهة تعكر مزاجك .

اتكأت بلقيس على مرفقها ، وقالت في صوت واهن ساخر :

- أنت هكذا ، تهربين من الامور وتسمينها تافهة ، أتمنى أن أراك يوما منفعلة .

قالت الهام في استنكار :

- ولماذا أنفعل وأحرق أعصابي ؟
- لا فائدة . لن تتغيرى . لا تلومي الا نفسك اذا بقيت معلمة حتى يحيلونك على التقاعد .

قالت الهام معاندة :

- الترقية من حقي . وسآخذها رغما على من يرضى أو لا يرضى .

ماذا ينقصني !

تنهدت بلقيس وقالت مخاطبة سقف الحجرة :

- ايه ... لايقدر على أبي سوى أمي .

- أنا أقدر عليك ! أستغفر الله .

لم ترد عليها بلقيس التي أعادت رأسها على المخدة ، وأغمضت عينيها .

× × ×

كانت ماري تنظر من نافذة غرفتها المطلة على الشارع حين شاهدت سيارة أجرة تقف أمام باب الفندق . وبعد تعرفها على الراكبين الذين نزلا منها ، خرجت من مكتبها لاستقبالهما . تأثرت ماري لرؤية دموع صباح، وصوتها المتهدج وهي تردد خليطا من كلمات عربية وبرتغالية : اشتقت لكم ، للناس الطيبين ، للهواء النقي ، للجبل العالي - توقفت لتسمح عينيها وأنفها ثم أكملت - لو يسمع اسكندر كلامي ، ونستقر هنا بقية عمرنا .

رفع اسكندر يد ماري وقبلها ، ثم خاطب زوجته قائلا :

- ليس هذا وقت الكلام ... خلينا ندخل الفندق لنرتاح .

- اسبقني وسألحق بك - ثم مخاطبة ماري ، ويدها تعبث بياقة قميصها - عندى لك أخبار مفرحة .

في كل سنة تعدها صباح بعريس، مهاجر مثلهما ، وغني مثلهما ، ويرغب بالزواج من فتاة من الجبل .

- هذه المرة موءكدة . سترين . سيأتي بعدنا ، وسأدعوه الى الفندق لتتعارفا . وقد يجعل الله فيها النصيب ، مارأيك ؟ لن تمانعي ؟

دارت ماري خجلها باحتضان المرأة الطيبة ، التي تسعى لتزويجها وكأنها أمها . ظهر وجه اسكندر من باب الفندق ، ونادى على زوجته في نفاذ صبر . ضغطت على يد ماري وقالت مبتسمة :

- انه مثل طفل صغير . لايصبر دقيقة واحدة بدوني . ماذا سيفعل لو مت قبله !

عند الظهر خرجت ماري من مكتبها ، حاملة ناقوسا ، ووقفت أمام مدخل قاعة الطعام لتدقه ، معلنة عن حلول فترة الغداء المخصصة للاطفال. كانت هذه احدى القواعد التي وضعها والدها اثناء ادارته للفندق ، ولم تجروء ماري على تغييرها مع أنها لم تكن مقتنعة بضرورتها . يقول بركات بان والدنا يمقت الاطفال ، وتقول والدتي بأن بعض النزلاء طلبوا منه ذلك .

شاهدت خليل واقفا عند باب غرفته ينظر اليها محتارا . كان يرتدي روبا قديما فوق منامته المخططة . مشت اليه لتشرح له سبب قرعها للناقوس، احتج بأن ابنه ليس طفلا ، فقالت له في هدوء بأنها قاعدة يعملون بها في الفندق منذ افتتاحه ، وقبل أن تبتعد سمعته يهدد ابنه بالضرب المبرح اذا لم يتصرف بتهذيب على مائدة الطعام .

ندمت ماري حين مرت بعد ربع ساعة بباب قاعة الطعام ، فرأت ابن خليل عبود ، يتناول طعامه لوحده . وكان قد غاب عن ذهنها بأنه سيأكل لوحده اليوم ، وودت لو تركته يتغدى مع أبيه . اقتربت من مائدته ، وسألته ان كان ينقصه شيء ، فتمتم بكلمات غير مفهومة .

كانت بلقيس والهام جالستين في البهو عندما خرجت ماري من مكتبها ، وبيدها الناقوس لتدقه للمرة الثانية في ذلك اليوم . وتساءلت عن سبب استياء بلقيس البادي على وجهها ، وهي عادة ما تشاهد عابسة ، أو كما تصفها رسمية : أنفها مشمئزة ، وكأنها تشم رائحة نتنة في الهواء ، ويقول جبور

جادا بانها قد تكون مصابة بالتهاب مزمن في الجيوب الانفية .

اعتادت العائلة تناول طعامها بعد انتهاء فترة غداء النزلاء . وتقبل الجميع ذلك فيما عدا بركات الذى يردد بأنهم ليسوا خدما ليأكلوا بعد أسيادهم ، ويهدد بين حين وآخر بأنه سيتناول طعامه في المطبخ ، ولو لوحده ، ولكنه لم يفعل ذلك حتى الان .

× × ×

بعد الغداء يخيم سكون تام على الفندق ، وتتوقف الحركة فيه ، حتى يخاله المار به بأنه مهجور أو مغلق . يقضي الكبار ساعات القيلولة في غرفهم ، ويحبسون أولادهم الصغار معهم حتى لايزعجوا النزلاء الاخرين . فجر فؤاد من البحلقة في السقف المعتم ، فحول عينيه نحو النافذة ، لكن ستائرها السميكة المسدلة كانت تحجب الرؤية . قال لنفسه بأنه يكره هذا الفندق ، ولا يعرف لماذا اختاره أبوه ، وفضله على فنادق الجبل الاخرى . لقد شاهد في طريقهم الى هنا بالسيارة فنادق كبيرة ، أكبر من هذا الفندق ، لها واجهات جميلة ، مزينة بشرائط طويلة تتدلى منها أوراق ملونة براقة ، ومصابيح صغيرة ، وفي ساحاتها الامامية نوافير مرمرية تقذف الماء عاليا ، وحولها يلعب أولا صغار ، غير بعيدين عن أهاليهم الجالسين في ظل عرائش العنب والاشجار الخضراء . أما في هذا الفندق ، فاللعب محظور ، وحتى لو كان مسموحا به ، فأين يمكن اللعب ، في قاعة الطعام ! لقد فرضوا عليه تناول طعام الغداء لوحده ، وقبل أن يفرغ من ذلك اقتربت منه امرأة ضخمة ذات شدقين واسعين مثل سمكة ، وأمرته بالاسراع لأن الفترة المخصصة للاطفال أوشكت على الانتهاء ، ثم عادت الى مقعدها في مدخل القاعة. أحسست بها تراقبني ، فقمت من المائدة وخرجت .

ذكرتني بعمتي التي لا تطيق الاولاد ، لأن جميع أولادها الأربعة ماتوا

صغارا ، كما شرحت لي والدتي ، وكنت أكره مرافقتهما في زياراتهما المنتظمة لها في الاعياد والمناسبات . كانت تأمرني بالذهاب الى المطبخ ، حيث أجد سعدية ، قريبة والدى من بعيد ، والتي تخلى عنها ذويها لتخدم عمتي التي تعيش لوحدها في بيت كبير ، وسمعتهم يتهامسون بأنها تمتلك الاف الدنانير وعلبة مليئة بالذهب والمجوهرات . تستقبلني بوجهها المكتنز المدور ، مثل عجينة خبز ، وتقبلني على خدى عدة مرات ، وتشمني وكأني وردة جورية قائلة بأنها تجد في رائحة الاحباب . تفرش لي بساطا صوفيا على الارض ، وتضع عليه وسادة ذات وجه ملون ، وتجلسني عليه . تصب لي كوبا من الشاى وتذيب فيه أربع ملاعق من السكر ، وتخرج من درج الدولاب علبة ، وتملأ كفها بالملبس الملون ، والتوفي الانجليزى الاصفر ، الذى يذوب في فمي ببطء مثل مسكة ، دون أن يلتصق بأسناني ، وأشعر بقبضة يدها تتحرك داخل جيب بنطالي حتى القعر ، ثم تفرغ ما في كفها من أطايب ، وتسحبها في حركة افعوانية تدغدغ فخذي. تفعل كل ذلك وهي تترنم بأغنية شعبية . وعندما أنشغل بشرب الشاى المدبس ، وآكل الكعك المغموس فيه تتحول من امرأة غمرتني بكرمها ولطفها الى فتاة مشاكسة . تبدأ بقرصات خفيفة ، غير موجعة ،على كتفي ويدى ، فأتظاهر بعدم الاكتراث ، ولكنها تتمادى في ذلك ، ويرعبني التحول في ملامح وجهها التي تصبح غريبة ، ونظرات عينيها اللتين تبدوان كقعرى بئرين مظلمين . أفقد صبري ، فأهددها بافشاء ما تقوم به الى أمي ، فتقترب مني وتقول متوسلة " توبة " وتعدني بعدم العودة الى ذلك ، ولكنها كانت تكذب . اهرب منها الى غرفة الجلوس فتنهرني عمتي وتعيدني اليها . في أحد الايام المخصصة لزيارة العمة قلت لامي بأني سأبقى في بيتنا ولن أذهب معهما ـ كانت تلك آخر زيارة لنا سوية قبل دخول أمي الى المستشفى ، فسألتني أمي عن سبب ذلك ، فقلت لها بأن العمة تكرهني ولا ترغب بروءيتي فلماذا أذهب لزيارتها . أجلستني على حجرها ، وأخبرتني عن أولاد عمتي الاربعة الذين ماتوا جميعا ،

وعن حزنها المتواصل على أولادها ، الذى أقعدها في البيت ، وجعلها تنفر من الاولاد الصغار . ولكنني عاندت وقمت من على حجرها في غضب ، فأدركت أمي وجود سبب آخر . ألحت علي حتى أجبتها صارخا ، ودموعي تنهمر دون انقطاع بأنني لا أريد الذهاب ليس بسبب عمتي المسكينة ،ولكن حتى لا يتورم جسمي من قرصات سعدية قريبتنا ، ثم أخبرتها بما تفعله سعدية . شعرت بأنها لم تصدقني ، وخفت أن تضربني ، فأقسمت لها بالقرآن الكريم ، وبالرسول بأني صادق . ثم قلت في تحد بأنني أقبل الذهاب معهم هذه المرة لاثبت لهم صدقي . ابتسمت ، وداعبت شعرى ، وضمتني بقوة الى صدرها .

أتذكر ذلك اليوم جيدا ، ولا أظن بأنني سأنساه ما حييت ، فبعد أقل من اسبوعين أدخلوها الى المستشفى . ولم أرها بعد ذلك . ماتت في المستشفى بعد عدة أشهر . سألت والدى ذات يوم لماذا لا أستطيع مصاحبته في زيارة أمي في المستشفى ، فأجابني في عصبية بأنها مريضة ، ولا يسمحون للأطفال بزيارة المرضى في المستشفى الذى ترقد فيه . توسلت اليه فنهرني . بكيت لعل قلبه يرق ولكنه صفعني بشدة ...وحتى أثبت لامي بأن سعدية ، قريبة أبي ، كانت تعذبني في المطبخ بعيدا عن أنظارهم صحبتهما في الزيارة . أرسلوني اليها ولكنها كانت منشغلة عني باعداد الشاى وصحون الفاكهة والحلويات للضيوف ، جاءت أمي الى المطبخ لتطلب منها كوب ماء ، فهززت رأسي لها مشيرا بأنها لم تبدأ بتعذيبي بعد ، فابتسمت وغادرت المطبخ .

راقبت سعدية المقرفصة أمام الموقد النفطي ، وهي تقلب شرائح الباذنجان في بحيرة من الزيت في مقلاة ، ثم تتركها قليلا لتحرك محتويات طنجرة مليئة بالأرز . حملت الطنجرة وسكبت ماءها في طنجرة أخرى ،وأعادتها الى مكانها فوق النار ، وهي تترنم بأغنية جديدة . التفتت صوبي وابتسمت قالت بتدلل : أنت أكيد مشتاق لحبيبتك سعدية . قامت من مكانها ، وجلست بجانبي على البساط الصوفي ، ووضعت يدها على كتفي ، فسرت في جسمي رعدة

خفيفة أحست بها . قالت في صوت ينم عن قلق : حبيبي فوءاد . أنت خائف مني . وترتجف . أنت خائف من حبيبتك سعودة . أكيد بردان ، تعال في حضني لأدفئك.

لم توجعني قرصاتها وضماتها مثل المرات السابقة . كنت أقول لنفسي في روح استشهادية بأنها ضرورية لابرهن لامي وأبي على صدقي . سأسألهما لماذا تعذبني سعدية بقرصاتها وتقول لي بأنها تحبني.حدث هذا قبل معرفتي لسر القرصات ، ومن سعدية نفسها . تحملت قرصاتها في ذلك اليوم وفي طريق العودة الى البيت ، قلت لامي ، مغالبا دموعي : لم تصدقيني ، حلفت لك ولم تصدقيني. وسترين بأني لم أكذب عليك . في البيت ساعدتني أمي في خلع ملابسي ، وبعد أن تفحصت كتفي وفخذى تركتني لتنادى والدى . طلبت منه الاقتراب ليرى بنفسه البقع الرمادية والزرقاء التي تركتها قرصات سعدية على أماكن عديدة من جسمي . وبينما كانت هي ترتجف من الانفعال كان وجهه خاليا من أى تعبير . قالت بأنها لن تسكت على أفعال سعدية ، ووصفتها بقلة الحياء ، وانها ستفضحها بين كل أقاربنا ، وللعمة التي أوتها بعد أن نبذها أبواها ، وستذهب اليها لتقول لها ، وجها لوجه ، بأنها اذا كانت تريد التسلية فعليها البحث عن رجل في عمرها أو أكبر منها تلعب معه العابها البذيئة ، الوسخة ، التي لا تصدر عن فتاة أو امرأة شريفة . لم أشاهدها في سورة الغضب تلك من قبل – أو من بعد . كنت أسمع صوتا غريبا يخرج مع كلامها ، وتلون خداها الشمعيان بحمرة خفيفة ، حتى اعتقدت في جهل الاطفال بأن الغضب مفيد لها ، ثم بدأت تسعل بشدة ، وصدرها يعلو ويهبط ، فامسك بها والدى ، وهزها بقوة طالبا منها التوقف لئلا توءذى نفسها ... قادها الى سريرهما النحاسي ذى الصوارى الاربع ، وسجاها عليه . وبعد أن أحضرت لها قدحا من الماء سمعته يعدها بتأديب سعدية ، وبأنه يعرف دواءها .

عادت به ذاكرته الى اليوم الذى أخبره فيه أبوه بأن أمه لن تعود . كان مرتبكا ، ذقنه خضراء ، وفي يده مسبحة . قال له بأنها كانت مريضة جدا ، بمرض خبيث ، وانها لم تستطع مقاومة المرض ، ولم تشفها الأدوية

ولكنها ارتاحت الان بعد عذاب طويل . وانها كانت تحبك كثيرا، لأنك ابنها الوحيد ، وتوصيك بطاعة أبيك الذى يعرف مصلحتك ـ أدار وجهه نحو الحائط ، ومسح دموعه بكفه . تركني في بيت عمتي التي لا تطيق رؤيتي ، وذهب الى عمله الجديد في مدينة بعيدة بالجنوب . لم أعد أراه الا مرة واحدة في الشهر وفي الاعياد . صار غريبا ، يخيفني ، وأرتجف منه رعبا اذا غضب ، لايعطيني نقودا ، ولم يشتر لي ملابس جديدة في العيد الماضي . كل الاولاد في عمري يمتلكون ساعة يد ، أما أنا فلم ألبس في معصمي سوى ساعة لعبة .

سمع أباه يناديه ، فأدار وجهه وهو يفرك عينيه ليشاهد أباه جالسا على طرف السرير ورأسه بين يديه . قال له دون أن يرفع رأسه : انظر اذا كان هناك أحد يجلس في الخارج .

كان البهو خاليا ، تلكأ أمام ساعة دقاقه معلقة على الحائط . توجد واحدة مثلها في بيت عمته تعلن الوقت كل ساعة بدقات عالية ، تعبئها عمته بنفسها ، ولا تدع سعدية تقترب منها . في الشرفة كانت خادمة ، ضخمة الجثة ، تنزل الكراسي من فوق الطاولات ، وتمسحها بهمة عالية . انحنت لالتقاط الممسحة من على الارض فانحسر ثوبها الاسود عن ساقين ممتلئتين ، أغلظ من ساقي سعدية ، ولكنه لم ير امرأة أقوى من سعدية . كانت تحمله على كتفها وتدور به على سطح المنزل بسرعة في اعصر أيام الصيف ، عندما نصعد سوية لنفرش الاسرة التي ننام عليها في الليل . أصرخ مرتعبا من زلة قدم تقذفني من أعلى سور السطح الى فناء البيت أو الحديقة الخلفية . تراضيني باعطائي المضخة لارش مبيد الحشرات ، وأساعدها في رفع الكلل فوق الأسرّة.

أودعني أبي لدى أخته التي استضافتني مرغمة ، وتنازلت عني بدورها الى سعدية . كنت لعبتها الوحيدة . في صباح كل يوم جمعة تملأ حفرة النار تحت الحمام بالحطب ، وترش عليه الكيروسين ، ثم تشعلها ، وبعد أن يسخن الماء ، تقودني الى الحمام غير عابئة باحتجاجاتي ، فتخلع عني ملابسي ـ

كنت أصرخ بأني لم أعد طفلا ولست بحاجة لمساعدتها ، فترد علي بأني لا أحسن تنظيف بدني ، وانها تخاف علي من الاصابة بالبرد . وماذا سنقول لوالدك لو جاء ووجدك مريضا ، طريح الفراش . تجلسني أمامها على دكة صغيرة ، عاريا ، وتدلكني بالليفة الخشنة من قمة رأسي الى أخمص قدمي ، حتى يحمر جلدى ، وكانت قد توقفت عن قرصي .

انتبه من أفكاره ليرى الخادمة واقفة تنظر اليه في استياء واضح . تراجع وعاد الى الغرفة ليقول لابيه بأنه لا يوجد أحد في البهو أو الشرفة سوى خادمة .

× × ×

اختارت بلقيس أفضل طاولة على الشرفة . دارت بنظرها في الشارع المقفر من السيارات والمارة ، وخاطبت الهام :

- أسألك . لماذا يصيف الواحد ؟

تعجبت الهام من سوءالها . أجابتها :

- للاستمتاع بالطبيعة وتغيير الهواء .

قاطعتها بلقيس :

- والاستجمام والاسترخاء ، الى آخر ذلك من الكلام الذى يكتبونه في نشرات السياحة المصورة . وبعد ؟

قالت الهام وكأنها تذكرت شيئا مهما :

- نتسوق ، ونشترى هدايا لأهلنا وأصدقائنا .

- سوق ، سوق ، أنت لا يهمك غير التسوق . أما أنا فأريد روءية بشر . نجلس هنا ساعات ولا أحد يمر في الشارع سوى سيارات مسرعة تخنق أنفاسنا بدخانها .

- اصبرى . بعد قليل يخرج النزلاء .

قالت بلقيس مستنكرة :

- نتفرج على بعضنا !
- أليس هذا ماتريدينه ؟
- هي فرجة دون شك ، لكنها مؤذية للعيون ، وتجلب الغم والهم للنفوس . مثل حضور مآتم . عجوز ترتجف ، هذا لا يتوقف عن السعال والاخر أعرج . ورسمية - وكيف أنساها ، وهي مزروعة بيننا مثل نخلة جرباء ، وكلهن يلبسن الاسود وكأنه عزاء مقيم .

قالت الهام متفلسفة :

- لا يوجد انسان واحد مرتاح في هذه الدنيا ... أرادت تغيير موضوع الحديث ، فأكملت : هناك نزيل جديد في الفندق .

أشاحت بلقيس بوجهها معبرة عن عدم اهتمامها . قالت الهام :

- تقول مارى بأنه ينزل هنا مع ولده .

أضافت :

- سألته جميلة عن أمه فقال لها بأنها متوفاة .

قالت بلقيس :

- لا أدرى لماذا لا يوظفون النساء في الشرطة ، للعمل كمخبرات ومحققات .

قطبت الهام وجهها في استياء من كلام صديقتها ، التي داعبت شفتيها ابتسامة تشفي .

تحول اهتمام الهام الى سيارة الاجرة التي توقفت أمام بوابة الفندق. انفرج وجه الرجل الذى نزل منها عن ابتسامة عريضة . ورفع يده محييا الجالسين على الشرفة . سحبت بلقيس ذراع الهام لتجبرها على انزالها ، ونهرتها بحدة عن التصرف مثل المراهقات . ردت عليها الهام بأنه منير حكيم وقبل أن تردعها بلقيس عن سلوكها الذى رأته معيبا أسرعت لاستقباله والترحيب بمقدمه عند مدخل الفندق . وكانت سعادتها لا توصف عندما سمعته يخاطبها

باسمها . وقالت لنفسها بعد أن عادت الى طاولتها : لقد تذكر اسمي ، أديب وصحفي مشهور ، تنشر الجرائد مقالاته ، وتملأ رواياته وأعماله الأدبية المكتبات . ومع ذلك لم ينس اسم معلمة نكرة ، نزل معها في نفس الفندق .

× × ×

كان خليل أول من أيقظه جرس الباب ، الذى رن بعد منتصف الليل . خامر نفسه شك بأن الطارق جاء من أجله ، فهم يختارون هذه الساعة لتخويف الناس أحيانا ، ولكن غالبا لأنهم يعملون في الليل أيضا ، وهو يعرف ذلك . حبس أنفاسه لدى سماعه همسا وطقطقة كعوب أحذية تقترب من باب غرفته ، ولم يهدأ باله الا بعد عودة السكون الى الفندق .

انتظرت مارى أن يستجيب أحد غيرها لجرس الباب ، لكن الرنين استمر دون انقطاع . تساءلت وهي تنهض من فراشها : من يأتي في هذه الساعة المتأخرة . حاولت ايقاظ سلمى التي تململت وردت عليها بغمغمة غاضبة من سباتها العميق . وجدت عطا الله قد سبقها الى فتح باب الفندق ، تبعته بعد أن أنارت مصابيح المدخل . شاهدت أربعة أشخاص واقفين عند البوابة ، رجل قصير متقدم في السن ، لاتزال يده مرفوعة بالقرب من زر الجرس ، على يمينه فتاتان ، اعتقدت مارى بأنهما ابنتاه ، وعلى يساره ابنه المراهق ، ولم تر زوجته ، التي وقفت في المؤخرة ، حاجبين عنها الضوء ، الا بعد أن فتحت لهم البوابة ليدخلوا ، وحين استرجعت المنظر في ذهنها فيما بعد قالت لنفسها بأنها تعرف الان لماذا كانت تقف وراءهم ، في الظلال . تعجبت لأن وجه احدى الفتاتين كان خاليا من الزينة بينما غطت وجه الثانية طبقة سميكة من المساحيق والألوان ، ولم تعرف بأنها زوجته الثانية الا حينما دونت البيانات عنهم في سجل الفندق .

× × ×

وقفت بلقيس عند مدخل قاعة الطعام تنظر بامتعاض الى النزلاء الجدد الذين سبقوهما ، وجلسوا الى طاولتها المفضلة . تبعت الهام الى طاولة أخرى وهي تبربر : اكتملت بحضورهم . وأشارت اليها الهام بألا ترفع صوتها لئلا يسمعوها ، ولكن صديقتها أكملت : وماذا ينبت في الصحراء غير الشوك والصبير !

قالت الهام وهي تلملم ثوبها لتجلس :

- لا شوك ولا صبير . انظرى الى بدلته الانيقة ، وربطة عنقه الحريرية ، وشعره المزيت والمفروق .

ردت عليها في لهجة سخرية .

- نظرت ، فرأيت لطخات الصبغة وراء أذنيه ، وسمعت أصوات الطحن والمضغ الخارجة من فمه ... وأراهنك بأنه نسي أزرار سرواله مفتوحة .

تحول انتباههما الى منير الذى توقف أمام طاولتهما ، وراح يفرك يديه في حماس . كان يرتدى بدلة سفرية خاكية اللون . قال :

- هواء الجبل منعش . أحس بالدماء تجرى في عروقي .

انفرجت شفتا بلقيس قليلا ، وخاطبته في سرها : ضغطك مرتفع يا "استاذ سألته الهام وعيناها تلمعان باعجاب :

- هل ننتظر منك رواية جديدة يا أستاذ منير ؟

تراجع منير رافعا يديه في استنكار وقال :

- لا ، أرجوك ياآنسة الهام . هذا الصيف للراحة والاستجمام فقط .

علقت بلقيس وهي تشيعه بنظرات ازدراء :

- من لا يعرفه يظنه أبله ، أفلته أهله ليرتاحوا منه .

كانت الهام على وشك الاعتراض لكنها لم تمهلها وأكملت بحزم :

- لا تتكلمي كثيرا . وفري قواك للسوق .

سكتت الهام على مضض .

× × ×

أخرجت عفاف يدها من نافذة السيارة ولوحت بها ، ثم قالت لامها واختها الجالستين بجانبها : هل رأيتما بلقيس والهام ؟ قالت أمها في استخفاف : هنيئا لك ! وعقبت أختها : أكيد ذاهبتان الى السوق .

شاهد بركات رسمية تنزل من سيارة الاجرة ، متكئة على يد ابنتها عفاف ، بينما وقفت نادرة جانبا تراقب السائق الذى كان ينزل حقائبهن من على ظهر سيارته .

خرجت مارى بعد قليل لاستقبالهن ، وهي تردد كلمات الترحيب.بادلتهن القبلات . كل واحدة منهن تضع عطرا مختلفا . أمسكت رسمية بيدها ، ومشتا سوية بين "اصص الزهور والنباتات المرصوصة على جانبي المدخل . قالت رسمية مشتكية:

- لا أصدق بأني عشت لأرى الجبل والفندق - وأضافت وهي تضغط على يد مارى المحبوسة داخل كفها - وأهله الطيبين .

ابتسمت مارى . لا يكاد يمر يوم مع رسمية لا تذكرهم فيه ، بالتصريح أو التلميح ، بان منيتها قريبة ، وانها ستموت وتدفن في لحدها ، وتتركهم يتمتعون بالحياة بعدها ، وكأن حب ابنتيها لها ليس كافيا ، لذا تريد سماع رثائها ، وتشاهد حزنهما عليها حتى قبل وفاتها.لو سألوها عن أمنيتها بعد الوفاة مباشرة لطلبت حضور عزائها . نظرت اليها عفاف نظرة معبرة ، وكأنها تريد أن تقول لها بأنك تعرفين والدتي .

توالت أسئلة رسمية ، عن صحة الجميع ، وعن الأقارب الذين التقت

بهم في المواسم الماضية ، ومازالت ذاكرتها القوية تختزن أسماءهم ، وعن الطقس في الشتاء المنصرم ، وعن الغرفة المحجوزة لابنها وزوجته ، وقبل أن تسمع كل الاجابات على أسئلتها أعلنت بأن السفر قد أنهك قواها ، وانها بحاجة لراحة في السرير بعد أن تغتسل .

سبقتهن مارى لتطلب من جميلة اعداد الحمام لرسمية . لحقتها عفاف ، ولفت يدها حول خصرها . قالت في استغراب :

- زاد وزنك .
- أنا ! أبدا . يتراءى لك ذلك لأنك نحلت .
- أتعرفين لماذا تريد والدتي الاستحمام الان ؟
- شيء طبيعي ! بعد سفر متعب .

قالت وهي ترفع حاجبيها المعقودين : كلا ، لم تحزرى .

أضافت بعد صمت قصير : يئست ؟ سأقول لك اذن ، بان والدتي - مع بالغ الأسف - خارجة على القانون ، وتريد أن تغسل آثار الجريمة .

- أى جريمة ! أنت تسخرين مني .

قالت في همس ، بعد أن تلفتت يمينا ويسارا :

- أنت لا تعرفين ما تخفيه في سروالها الداخلي .

فلتت الضحكة من فم مارى ، ثم زمت شفتيها في حزم وقالت :

- يظهر أن الرحلة أثرت في دماغك .

رفعت عفاف يدها وكأنها تقسم يمينا في محكمة :

- أشهد بأن في سروالها ألفا دينار ... هل فهمت الان لماذا تريد الاستحمام ؟
- تهريب؟
- بالضبط . لو يدرى الصراف الذى سيحول دنانيرها الى ليرات .

ضحكت مارى وقالت :

- أف منك ومن مزاحك .

عادا سوية الى البهو . جلست رسمية على الأريكة المخملية ، القريبة من باب المطعم ، تتحسس بيدها اللوالب المعدنية الناتئة تحت القماش السميك ، وكأنها تريد التأكد من أنها لازالت كما تركتها في العام الماضي . اشتكت الى بديعة من آلام جديدة تشعر بها في رقبتها ، مشيرة الى مكان الألم تحت أذنها .

ابتسمت نادرة لماري ، وهي تربت على المقعد بجانبها ، تدعوها للجلوس بجانبها . خاطبتها وهي تومئ برأسها نحو عفاف :

- هل رأيت كم هي مشتاقة اليك ؟

فكرت ماري بأنها مثل أمها لا تطيق أن يكون أحد غيرها محور الاهتمام ، وتغار من صديقات اختها على قلتهن .

جلست رسمية على سريرها ، ورفعت أغطيته ، وبعد أن تأكدت من وجود فراشها الذى اشترته بمالها استلقت على السرير بكامل ملابسها . فكرت بما يخبئه لهم هذا الصيف . تتفاءل بلقاء ابنها بعد فراق طويل ، وتخشى من الاسراف في التفاؤل . لن تعاتبه على غيابه ، لان العتاب الزائد مثل الضرب المبرح يؤدى الى المكابرة . ستترجاه أن يعود ، وستذرف الدموع أمامه مدرارا لعل قلبه يلين ، وستقبل يديه لو تطلب الامر ، وستصف شوقها له ، ولهفتها لرؤيته ، ورؤية أولاده - أحفادها - وهم يولدون ويكبرون غير بعيدين عنها . وستقول له بانهن بحاجة لرجل ، يرعاهن ويحميهن ، بعد أن تغيرت أحوال الناس ، وانها هرمت وليس لها قدرة على ادارة شؤون العائلة وبالاخص أخته نادرة ، التي تتهمني بأني أريد تسيير حياتها . قبل أيام زعقت في وجهي : أنا لم أفر من عبودية زوجي لتضعين قيودا جديدة في يدى وسمعتها تقول لعفاف بأنها ستطالب بنصيبها من ارث أبيها ، وستغادر البيت

لتعيش بمفردها .لو عاش أبوكم ، لاختار زوجا مناسبا لها ، ولما طلقها زوجها بعد أشهر قليلة من زواجهما ، وتركها ناقمة على كل شيء ، تفرغ غضبها على رأسي ، واذا هربت منها افتعلت شجارا مع الخادمة أو البستاني ، أما الثانية ، فقد عنست . منذ بلوغها العاشرة بدأت بشراء عدة زفافها ، ملاءات الاسرّة المطرزة ، شراشف الطاولات الموشاة ، وقماش الستائر ،وحتى الليرات الذهبية ووضعتها في صندوق كبير ... واكتملت المصائب بزواج زهير من أجنبية .

مات أبوهم وهو سيد الناس ، قبل أن تنقلب الامور ،ويرفعون روءوسهم علينا ، لنرى في عيونهم حقدا قديما - والأسوأ من ذلك الشماتة . مات قبل ذلك بسنوات عديدة ، ولم يشهد اليوم الاسود الذى حضر فيه موظفو الحكومة الجديدة ، في قافلة من السيارات الرسمية ، وخرجوا منها حاملين أجهزتهم ودفاترهم . لم يطلبوا اذنا من أحد . نصبوا خيمة على الحافة الشمالية للبساتين ، على ضفة النهر ، وغير بعيد من المضخات التي توقف هديرها منذ شهور . قال رئيسهم لوكيل المزرعة الذى أرسلته لسوءالهم عما يفعلون : نحن مكلفون بمهمة رسمية ، والذى يعارضنا أو يعرقل عملنا ستقبض عليه الشرطة . وفي اليوم التالي ، وقبل الظهر بساعة ، دخلوا حديقة القصر الامامية ، ووقفت أراقبهم من نافذة غرفة الجلوس ، مختبئة وراء ستارة ، وكأني أنا المتطفلة وهم أصحاب المكان . رأيت أحدهم يسير وسط أحواض الزهور التي زرعتها ونسقتها بيدى . لم يكن يوءدى عملا أو يعبر الى الجهة الاخرى . كان يدوس على الازهار متعمدا ، يرفع حذاءه الثقيل ، الملطخ بالطين ، وينظر في اثره الى الازهار المسحوقة والاغصان المهروسة برضاء عميق ،وبعد قليل رفع نظره الى نافذة غرفة الجلوس ، حيث كنت أقف ، ويبدو بأنه رآني أو توقع أن يكون أحد من أصحاب البيت يراقبه ، لانه ابتسم في تشف ، ثم عاد ليدوس على الازهار . ولم يكتف بذلك فقد كسر غصن شجرة نارنج ، وانهال به

على أشجار الحديقة حتى امتلأت الارض بالاوراق وبراعم البرتقال والليمون الحلو والنارنج . كنت أغلي غضبا ، وأجفل من كل ضربة وكأنها أسواط تنزل على جسدي أو جسد عزيز علي . أردت الخروج الى الحديقة ولكن نادرة وعفاف وقفتا في طريقي ، قلت لهما بأني أريد أن اسأله سؤالا فقط : لماذا ؟ أليست هذه نعمة ، فلماذا ترميها على الارض وتدوسها بقدميك . ولكني كنت أضمر شيئا آخر . كنت سأصفعه اذا لم يكف عن غيه ، تذكرت قولك بأن المجانين يثيبون الى رشدهم بالصفع ، ولكنهما تعلقتا بذراعي ومنعتاني من الخروج . أخبرني وكيل المزرعة فيما بعد بأنه ترجاه التوقف عن ذلك ، لكن رئيسه قال له محتدا بأن ذلك لا يعنيه ، لان القصر يقع وسط الارض التي تقرر الاستيلاء عليها وتوزيعها على الفلاحين المعدمين ، وأضاف مستهزئا بأن استطاعة أصحاب الدار أن ينقلوها الى مكان آخر اذا أرادوا ذلك - لو كان ذلك ممكنا لما ترددت ، ومهما كلف ذلك ، انهم لا يعرفون قيمتها بالنسبة لنا ، تلك الدار التي انطوت غرفها على ذكريات عزيزة ، فيها ولدت أبناؤنا ، ورددت ممراتها صدى ضحكاتهم .

قبل أسابيع ذهبت لزيارتها . سالت دموعي لرؤية أشجار الحديقة المتيبسة مثل الحطب ، وزجاج النوافذ المهشمة ، والمصباح المكسور في سقف الشرفة ، الذى شهد جلساتنا حول أكواب الشاى بدا كعين مفقوءة . مسحت دموعي ومشيت بمحاذاة جدار الاصطبل ، لكني لم أسمع صهيل خيولك ، وضربات حوافرها ، وشميت رائحة تراب ومكان مهمل بدلا من رائحة القش . وتذكرت جوادك الابيض ، الذى كنت تمتطيه في جولاتك الصباحية في البساتين - من يراك على ظهره في تلك الايام ، صدرك عريض وقوى وكأنه مصبوب من اسمنت ، وظهرك مستقيم مثل مسطرة يظنك غازيا ، استولى على المكان بقوته وجبروته ، وليس مالكه الشرعي ... لو عاش ليرى بساتينه تؤخذ منه عنوة لمات غما ، ولكنه مات قبل ذلك . قتله جواده الابيض ، كبا وأسقطه من على ظهره . قال

الفلاحون الذين شاهدوا ذلك بأنهم لم يسمعوه يتأوه أو يطلب المساعدة ،ولم يجرؤوا على مد أيديهم لمساعدته على النهوض ، فوقفوا بانتظار أن يفعل ذلك بنفسه ، ينفض التراب عن ملابسه ، يلتقط سوط الركوب الذى وقع من يده ويمشي بتوءدة الى جواده ، الذى كان يقف قريبا منه ، وصهيله لا ينقطع ، وكأنه يعتذر الى سيده عن هفوة غير متعمدة ، ليأتي ويربت على عنقه مسامحا ، ثم يمتطيه في يسر وكان ما حدث أمرا عاديا لا يستحق أكثر من تقطيبة حاجب عابرة . لم يكن من النوع الذى يطلب أو يتوقع المساعدة من أحد . ولم تصدق ما سمعته بأنهم تركوه يموت لانهم يكرهونه ، لانه كان يسيء معاملتهم ، ويسرق تعبهم وكدهم ، ويعتدى على أعراضهم ، كرهوه وكرهوا حصانه الابيض لانه كان المفضل لديه ، ولانه كان يغدو عليه كل يوم باحثا عن زوجة أو ابنة فلاح ،يعبث بها . سمعت ذلك صدفة من زوجة بستاني تعمل لدينا . كانت تدوف العجين وتتحدث الى الخادمة . سألتها الخادمة : أتقصدين حليمة ؟ فأجابتها زوجة البستاني بأن حليمة كبرت ، وأصبحت شابة في سن الزواج ، وأهلها لا يدعونها تخرج لوحدها ، وبأنها تقصد الصغيرة زكية ، التي لم تكمل الخامسة عشر بعد . قالت البنت لامها : كنت أجمع الحطب حينما رآني ابن الاجاويد ، فلكز حصانه حتى اقترب مني . سألني عن اسمي واسم أبي ، وهل أنا متزوجة ، ولماذا لم يرني في القصر من قبل ؟ تقول البنت بأنها خافت واستحت ، فسقطت من على ظهرها حزمة الحطب التي قضت ساعات الصباح في جمعها ، ولكنها تركتها ومضت . تقول بأن لهاث حصانه كان يلفح رقبتها مثل نار هذا التنور . وظل يتابعها حتى النهر . ولما شعرت بدنو حصانه ، قذفت بنفسها في النهر . عادت الى بيتها ، مبللة وملطخة بالطين ، تقول أمها بأنها استقبلتها بالتوبيخ والصفع ، وهي تظن بأنها كانت تسبح في النهر ، مخالفة بذلك أوامرها الصارمة . وبعد أن استمعت لقصتها ، حذرتها من افشاء ذلك لأبيها . سمعت كل ذلك من نافذة غرفتي المطلة على ساحة القصر الخلفية حيث كانت المرأتان تعدان خبز

اليوم ، كنت عروسا لم يمض على زواجي سنة كاملة ، ولكني كنت عاقلة ، لم أخبر أحدا بما سمعته - ولا حتى أمي .

انتبهت رسمية من أفكارها على قرع خفيف على باب غرفتها . وجدت عبير عند الباب التي أخبرتها بأن حمامها جاهز .

× × ×

في العصر خرج معظم النزلاء الى الشرفة ، للاستمتاع بنسمات آخر النهار اللطيفة ، قبل أن تجعلها رطوبة المساء غير محتملة بالنسبة لأبدانهم الضعيفة . احتلت رسمية أفضل مقعد عند الطاولة القريبة من باب الفندق الداخلي ، وجلست ابنتاها من حولها ، وأمامها بديعة وماري وسلمى ، خاطبت رسمية بديعة مداعبة :

- لو تبادلونا جوكم اللطيف وطبيعتكم الجميلة ؟

ابتسمت بديعة وأجابتها :

- وماذا يتبقى لنا ؟

قالت نادرة في انفعال :

- تصوري ماذا سيحدث لدمنا الحار في جو معتدل ولطيف مثل هذا الجو .

أجابتها عفاف :

- يبرد ويروق .

قالت نادرة :

- ستكون هذه معجزة القرن .

ضحكن سوية ، مثل كركرة دجاجات وقعن على حبوب منثورة . قالت رسمية في استنكار :

- هكذا نحن ، نضع كل اللوم على الحر ، وننسى الارادة والأخلاق.

لكن هذا زمان غير زماننا ، والعياذ بالله .

قاطعت نادرة حديث أمها قائلة :

- دعونا من الحر وأهله . شمي هذا النفس الطيب . رائحة الياسمين ترد الروح .

التفتت عفاف الى سلمى وخاطبتها في همس :

- ياليت أعيش هنا .

قالت هيام في حماس :

- اسكني معنا .
- المعارضة قوية .
- حاولي
- لا فائدة .

خرجت بلقيس الى الشرفة ، وتبعتها الهام . تلكأت الهام لتخبرهم عن أنواع الملابس التي شاهدتها في السوق ، واصفة كل قطعة أعجبتها بأنها " تخبل " . بعد أن لحقت بصديقتها ، كانت رسمية على وشك سلق العانستين بتعليق لاذع ، ولكنها غيرت رأيها عندما وقع نظرها على ابنتها عفاف . ضغطت على يد ابنتها الممدودة على الطاولة . ابتسمت وقالت : أتذكرون قصة عفاف والعصافير المشوية ؟ ولم تنتظر جوابهن . كن مدعوات على الغداء في مطعم فخم . أراد مضيفهم الاحتفاء بهن فأوصى على أغلب الاصناف المدونة على القائمة . واندهشوا لروءية دموع عفاف تسيل على خديها . سألتهامابها فأجابتني بأنها حساسية . ولم نعرف سبب هذه الحساسية الا حينما عدنا الى الفندق ،وقالت لي بأن الذى أبكاها هو منظر العصافير المشوية ، وأرجلها الدقيقة المحروقة . تبادلن ابتسامات خاصة معبرة ، وكأنهن من عائلة واحدة ، يعشن في بيت واحد ، يتخاطبن بلغات العيون والاجساد والصمت أحيانا ، التي تعلمها المعاشرة الطويلة والمكاشفات الصباحية بقمصان

النوم ، حول فناجين الشاى والقهوة ، وقبل ارتداء أقنعة الخروج . لا أحد يفهمها مثل ابنتها عفاف ، وكأنهما توأمتان ، فقستا من بيضة واحدة ،وتناجيا تسعة شهور في رحم واحد ، حتى عرفت كل واحدة منهما الاخرى مثلما تعرف نفسها. مثلا تدرك أن ابنتها تعاني في صمت ، من غير شكوى . استسلمت لقدرها ، الذى كان أبوها وسيلته ، عندما رفض الشاب الذى اختارته زوجا لها ، لانه ليس من طبقتنا ولا من جماعتنا ، لو وافق عليه لكانت الان مع زوجها وأولادها ، بعيدة عني ، لقد نذرت أن يكون يوم زفافها آخر ايام حدادى على المرحوم .

× × ×

اذا تأخر نزيل خارج الفندق لما بعد منتصف الليل ، ولو بدقائق قليلة ، فسيجد نوافذه مظلمة ، وشرفته مهجورة ، وقد يضل عنه لولا الضوء المسلط على اسمه المكتوب بحروف كبيرة فوق مدخله القديم . ويتعين عليه بعد دق الجرس الانتظار حتى يستيقظ النادل ، وينهض من سريره ليفتح له الباب الموصد . ولكن ذلك لم يكن يحدث الا نادرا ، لان أغلب نزلاء الفندق لا يسهرون خارجه ، والقليل منهم الذى يخرج الى الشرفة لهضم عشاءه ، يجبرهم هواء الجبل البارد على الانسحاب الى دفء غرفهم . وبعد أن تتفقد مارى المطبخ ، وتطمئن على والديها تطفىء أنوار الفندق فيما عدا مصباحين في كل طابق ليهتدى بها النزلاء الذين يحتاجون لاستعمال الحمام .

لعن خليل قلة النقود التي جعلته يختار هذا الفندق ، وضايقه الصمت فتمنى مرور شاحنة ضخمة يقودها سائق نصف مخمور ، مزاجه سوداوى أردأ من مزاجه ، ما أن يقع نظره على الفندق حتى تتحرك في نفسه رغبة خبيثة ، فيضع يده على زمور شاحنته القوي ، من بداية المنعطف ولا يرفعها الا بعد أن يتجاوز الفندق . لو كانت لديه نقود للتبذير لنزل في فندق آخر ، في وسط المدينة ، يسهر نزلاوءه حتى الفجر ، على أنغام موسيقى صاخبة ،وأصوات مطربين ومطربات يشجعهم حماس مصطافين مخمورين ، يريدون اطفاء ظمأ شتاء كامل ،بشرب كل أنواع الخمور ، ومغازلة أكبر عدد من النساء المبتذلات .

في الليالي الجافة ، كما يسميها ، والتي لا يشرب فيها ، تحضر أرواح موتاه . قرأ أو سمع أن الصينيين ينقلون عظام أجدادهم معهم من بيت الى آخر أما أرواح موتاه فتترك عظامها وتزوره في ليالي الارق . يدخلون عليه دون استئذان ، يجلسون على الكراسي وعلى طرف سريره ويقفون في الزوايا ، صامتين مثل أقارب حضروا لاقتسام ارث ، وكل واحد منهم يريد حصته من وقت أرقه ،ولا ينقصهم سوى نادل يدور عليهم بفناجين القهوة وأكواب الشاى والماء المثلج لتبديد سأم الانتظار . يقف والدى عند الباب ، يغطي شماغه القديم الخلق الذى حولته والدتي الى ممسحة أرض بعد وفاته - نصف وجهه المشوه بكدمات زرق وحمر كما تصورته بعد أن دهسته عربة نقل محملة . ينظر الي بعينه الوحيدة السليمة فاعود طفلا صغيرا . أختلق أسبابا أعتذر بها عن فشلي في تحقيق أحلامه . تخرج كلماتي مفككة . لا أظنه يسامحني . التفت نحو زاوية الغرفة مستنجدا بوالدتي ، لتحكي له عن الطاسة الصغيرة التي تضعها في يدى وترسلني الى بيت أحد جيراننا لأطلب طحينا أو سكرا ، فاذا عدت بها خالية أرسلتني الى جار آخر ، ولكني لم أستسلم لليأس ، داومت على المدرسة وتخرجت منها بشهادة ،وتوظفت ، وتحملت ذل الوظيفة . قالت لي أمي بانك بحاجة لزوجة ، تنجب لك أولادا ، وتعتني بك لانها كبرت ولم تعد قادرة على شغل البيت ، فتزوجت ، ثم مرضت زوجتي وماتت ، هذه التي تراها جالسة على الكرسي ، تخجل من رفع رأسها حتى لا ترون وجهها الاصفر وعينيها الغائرتين ، ولكنها زوجة وفية لم تنقطع عن زيارتي بعد وفاتها . وتدخل سعدية فأشم رائحة لحم محروق ، تتخصر وتقف فوق رأس زوجتي ، التي خطفت منها الرجل الذى وعدت نفسها به . ويتبعها آخرون ، جدتي العمياء بالماء الازرق ، التي كانت تنادى علي لاقودها الى المرحاض ، فاختبئ واضعا يدي على أذني ، حتى ينقطع صوتها ، والمسجون الذى توفي أمامي قبل أن تصل سيارة الاسعاف ، والسهر الرمادى الذى أزهقت والدتي أرواحه السبعة بضربة سيخ حديدى بعد أن سرق منها قطعة لحم أضحية .

أخاف من زياراتهم الليلية ، لذا أشرب حتى أسكر ، أستعيد فتات شجاعتي النهارية ، أسخر منهم ، اتجشأ في وجوهم ، أترنح مرتطما بكراسيهم فتنقلب بهم ، يفرون تاركيني لوحدى . ولكني حريص ألا يراني ابني سكرانا ، لقد وعدت المرحومة بأن أربيه أحسن تربية ، وما أسهل الوعود وأصعب التنفيذ. لو رأيت فرحته بحذائه الجديد الذى اشتريته له بعد أن شاهدته يفرك قدميه المتورمتين ، درت به على محلات بيع الاحذية ، واشتريت له الحذاء الذى أعجبه ، بسعر معقول ، وأكبر من قياس قدميه بنمرة واحدة ، لان جسمه ينمو بسرعة ، وحشوتها بالورق الذى كانت ملفوفة به . كاذب من يقول بأني تركتك وأنت مريضة تنازعين . لو كنت حاضرة معي عندما سلمني ساعي الادارة قرار نقلي لتأكدت من ذلك . غضبت وشتمت الساعي ، وطردته من مكتبي ، ورفست المقاعد والطاولات ، لاعنا الوظيفة والساعة السوداء التي توظفت فيها . وجاء موظفون من مكاتب قريبة للاستفسار عما يحدث ، فشكوت لهم حالي ، واسوني بكلمات جوفاء ، وانصرفوا وهم يخفون فرحهم بسلامتهم من قرار التنقلات ، ولولا خوفي من العودة الى الايام التي كنا نعيش فيها على طعام الجيران البائت لاستقلت .

مرت أربع سنوات على وفاتها ، ولكنها لم تتركه . تأتي مع زواره الليليين ، وتظهر له في كوابيس مرعبة يفيق منها منتفضا ، مبللا بعرقه . حلم بها موءخرا . كانت راقدة بجانبه ، تبتسم ، تتسع عيناها السوداوان بسوءال معلق ، ألا تريدني ؟ يمر بيده على أمواج شعرها الاسود الغزير ، يتلكأ على عنقها ، يدنو منها ، ثم يتذكر بأنها مريضة ،وان ملايين الجراثيم تعيش في الهواء الذى تتنفسه ، ولكنه لا يستطيع ايقاف انزلاقه نحوها وليس هناك ما يتشبث به .

كان يزورها مرة واحدة في الاسبوع . يركب الحافلة وينزل في المحطة القريبة من المستشفى ، وينزل معه أقارب لمرضى آخرين ، متجهمون ، تنطق نظراتهم بعكس ماتردده ألسنتهم من كلمات تشجيع وأمل بقرب الشفاء والعودة

الى الحياة الطبيعية . في كل مرة كانت تشكو له من أوجاعها المستمرة ، ومن معاملة الممرضات الفظة ، وعدم اهتمام الاطباء بحالتها ، ومن ضجيج المريضات اللواتي يشاطرنها الردهة ، ومشاجراتهن النهارية حول أمور تافهة ، وبكائهن في الليل . لم يقطع زياراته الاسبوعية حتى بعد أن سعلت في أحد الايام ، ثم عطست بشدة ، وكان جالسا بالقرب من سريرها ، فوقع رذاذها على وجهه وملابسه، مسحه بمنديله ، وفي طريق العودة بالحافلة ، أخرج منديله فوجد عليه بقعا رمادية صغيرة . وسوست له نفسه بأنها جراثيم المرض ، وان بعضها قد دخل في رئتيه واستقر فيهما . وفي اليوم التالي دفعته مخاوفه الى عيادة الطبيب العام في مستشفى المدينة . أخبر الطبيب بمخاوفه . أفزعه منظر يده التي بدت له ضئيلة وصفراء في يد الطبيب المكتنزة الحمراء التي قاس بها نبضه . أرسله الطبيب الى قسم الاشعة ، وبعد أن أخذوا له عدة صور شعاعية ، طلبوا منه العودة بعد أيام لاستلام النتيجة . لم يستطع منع نفسه من كراهيتها ، مع أنه يعرف جيدا بأنها ليست مذنبة ، حتى لو تأكد بأنه مريض مثلها . ترك عقله يعد خطة للانتقام ... لو تبين بأني مريض مثلها ، فسأذهب لزيارتها في الجمعة القادمة ، سأسدل الستارة حول سريرها القريب من الحائط حتى لايراني أحد من زوار المريضات الفضوليين ، أما الممرضات فلا خوف منهن ، لانهن لا يخرجن من غرفهن ، الا لزجر الزوار وتهديدهم بالطرد وحرمانهم من الزيارة اذا لم يخفضوا أصواتهم . سيتظاهر بأنه يريد تعديل وضع مخدتها ، ثم يسحبها من تحت رأسها ويضعها على وجهها ،ويضغط ، بكل قوته ، ولن تجعله خربشة أضافرها أو رفسات رجليها يتراجع ، وستخفي عنه المخدة نظرات الرعب والاسترحام في عينيها ،ولن يتوقف حتى تغادر آخر حشرجة صدرها المعلول . سيفعل مثلما يفعل أفراد احدى الطوائف التي سمع بأنهم يستبقون النهاية ويخنقون مرضاهم ، فمتى ما شعروا بدنو منية أحدهم - هل يسمعون رفرفة أجنحة ملك الموت ؟

يضعون مخدة على وجهه ويجلسون عليها . لو كان واحدا منهم فسيأتي دوره في أحد الايام . أفزعته الفكرة لان ذلك معناه أن يقضي عمره

خائفا من الاصابة بالمرض ، حتى لو كان مرضا بسيطا مثل الزكام . في تلك الليلة التي قضاها يدور في غرفته تمنى لو كان فلاحا معدما يعيش في كوخ من أكواخ تلك القرية البعيدة التي تلمع نيرانها ، أو حتى سجينا ينام على بطانية رفيعة أو كومة قش يحلم بالاهل والدفء .

عند مدخل المستشفى تحولت رجلاه الى عمودين من المطاط . وتصبب عرقه بالرغم من برودة الجو ، وهو يفكر بما سيحدث له لو تأكد بأنه مصاب بالعدوى ، وأدرك فجأة بأنه أخطأ بمراجعة المستشفى العمومي ، وكان عليه أن يذهب الى طبيب خاص لا يعرف بوظيفته في الحكومة ، لانهم لو عرفوا باصابته بمرض معد فسينهون خدماته ، وقد يجبرونه على دخول المستشفى ليقضي فيها القليل المتبقي من عمره . كان يهم بالعودة من حيث أتى حين شعر بيد توضع على كتفه . التفت ليشاهد الطبيب الذى فحصه بالامس . درس وجهه في لهفة وخوف ، لم يكن متجهما استعدادا لابلاغه بنبأ مشؤوم ، ولا بد أنه لاحظ وفهم ، فابتسم وأكد له وهو يرفع صورة الاشعة نحو الضوء بأن صدره سليم . وسأله ان كان يدخن ، فوعده في حماس بالتغلب على العادة . ترجاه ألا ينقطع عن زيارة زوجته ، لان احتمال اصابته بالعدوى بسبب هذه الزيارات ضئيل جدا ،خاصة اذا اعتنى بصحته وغذائه وتوقف عن التدخين . وسأله ماذا سيكون شعوره لو كان مكانها ، وضعه أهله في مصح وامتنعوا عن زيارته وليس له ذنب في ذلك . بعد ذلك لم يقترب منها . يضع كرسيا عند قدم سريرها ويجلس عليه ، ويقوم بين الحين والاخر الى النافذة المفتوحة ، ويمد رأسه خارجها ليتنفس هواء الحديقة الخالي من الجراثيم ورائحة المطهرات .

× × ×

تابعت رسمية دخول الرجل الغريب . لاحظت لون بشرته البرونزى وأنفه الدقيق وعظام فكه العريضة ، واستنتجت بأنه ليس من أهل المنطقة . وتعجبت عندما سمعته يتحدث بالعربية مع سلمى ، ولكنها استعادت ثقتها بفراستها بعد

أن أخبرتها سلمى بأنه انجليزى يقول بأنه سكن العراق مدة طويلة . قالت لنفسها كيف فاتني معرفة ذلك ، ونظرة سريعة على بدلته التي يبدو من طرازها العتيق بأنها فصلت قبل الحرب تدل على جنسيته ، خاطبت نادرة :

- لماذا يترك واحد مثله عيشه مرفهة في بلاد جميلة وخضراء ويأتي ليقيم بيننا ؟

أجابتها نادرة مندهشة :

- لا أعرف ! لماذا ؟
- واضح ! انه جاسوس .

بعد دقائق كانت رسمية وابنتها قد نسيتا الانجليزى الذى دخل غرفته ولم يخرج منها .

كان قد فتح حقيبته ليخرج منها ملابسه ويعلقها في الدولاب ، ولكنه شعر باعياء مفاجىء فجلس على السرير . دار بعينيه على محتويات الغرفة الصغيرة . أشياء لاتخصه ، اشتراها غرباء ووضعوها هنا ، مرت عليها أيادى كثيرة واستلقت عليها أجساد عديدة ففقدت خصوصيتها ، أصبحت مثل رصيف الشارع ، مقاعد المقهى ، وشوك وسكاكين المطاعم . تركت أشيائي الخصوصية في دارى التي لا تبعد عن ضفة نهر دجلة مائتي متر . اشتريتها من تاجر أرمني هاجر الى استراليا ، فرممت جدرانها وسقوفها ، واقتطعت جزءا من أرض الحديقة الواسعة لابني عليه غرفة نوم اضافية . كنت أنام فيها في أيام الصيف الحارة ، وأترك نوافذها مفتوحة لتدخلها نسمات الفجر البارة ، المضمخة بانفاس الآس والورود العطرة ، التي زرعتها بيدى ، واذا نشطت الريح أسمع طنطنة أجراس الكنيسة القريبة من دارى . أحبني جيراني . كانوا يحيونني اذا التقوني في الشارع ويسمونني " المستر " ،ولا يمر أسبوع دون أن يرسل لي أحدهم صينية عليها عدة أطباق من طعامهم الشهي ذى المذاق الحريف. وصرت مثلهم لا تكتمل مائدتي دون صحن مخللات . ولم أبخل بوقتي على أولادهم

الذين يقصدونني لأشرح لهم درسا في اللغة الانكليزية . ثم حدث الانقلاب فأصبحت شخصا غير مرغوب به . انقطع الاصدقاء عن زيارتي ، واذا اتصلت بهم لا أجدهم في منازلهم ، حتى جيراني صاروا يتجنبوني ، ولا يردون على تحيتي ، ولكني لم أيأس ، اقنعت نفسي بأن الوضع موءقت وسرعان ما تعود الامور الى طبيعتها وتفاديا للمشاكل قبعت في داري لمدة شهر كامل ، بعد أن ملأت دواليب ودروج المطبخ بالمعلبات . ومن كثرة ما أكلت منها أصبت بمغص حاد . خوفي من تدهور حالتي الصحية كان أقوى من قلقي مما قد أتعرض له في الشارع ، فارتديت ملابسي وخرجت ، ولكني لم أخط سوى خطوتين خارج داري ، وعدت مسرعا بعد قراءة العبارة التي كتبت بخط أحمر عريض على سياج الدار . تمنيت أن ألتقي الشخص الذى كتبها لاقنعه بأني انسان عادى مثله ، أريد قضاء بقية أيامي في بلده ، وان المستعمرين هم السياسيون ومساعدوهم من خريجي ايتون وأكسفورد وكمبردج .

بعد أيام أفقت على صوت مدوى ، كان الوقت قد تجاوز الظهر ، وكنت قد عدت الى السرير بعد تناول افطار خفيف ، كوب شاي وقطعة من الجبن الاسترالي المعلب . لم أعد أجد شيئا أشغل نفسي به سوى النوم ، بعد أن توقفت عن الاعتناء بحديقة البيت حتى لا يراني أحد من الجيران ، وبعد أن قرأت آخر كتاب في مكتبتي الصغيرة ، ومللت من كتابة رسائل طويلة الى أقارب وأصدقاء ، أهملت مراسلتهم منذ سنين ، ولا بد أنهم نسوني مثلما نسيت ذكرهم ، ولم أكن أنوى ارسالها لهم . وجدت زجاج نافذة غرفة الاستقبال المطلة على الحديقة الامامية مهشما ، ووسط المئات من قطع الزجاج الصغيرة التي تناثرت على الأرض حجر كبير . ادركت ساعتها بأن أوان الرحيل قد أزف . كان قرارا صعبا وموءلما . تركت دارى وجئت الى هنا ، وقضيت السنتين الماضيتين متنقلا بين فنادق من الدرجة الثالثة وشقق صغيرة لا تتميز بشيء سوى آجارها الرخيص.

كل يوم مثل سابقه . جلسات طويلة على مقاعد غير مريحة في ردهات الفنادق أو حديقة عامة أو شاطىء البحر . قررت البحث عن عمل يبدد

الملل ويوءمن لي دخلا اضافيا . بحثت في كل مكان ، وطرقت كل الابواب ، السفارات ، والشركات ، والمدارس . اشتغلت في وظيفة مترجم في مكتب للترجمة رضيت بربع ما يحصلون عليه مقابل عملي ، ولكنهم استكثروا ذلك ، فتركت العمل وعدت الى الجلسات الطويلة وقراءة الصحف والملل .

أخرج بدلته الرسمية السوداء من الحقيبة ، وتفحصها دون أن يرفع عنها غلافها البلاستيكي . اشتراها من محل كبير في شارع اكسفورد ، قبل سنوات عديدة ، ودفع فيها ثمنا باهظا بالنسبة لموظف صغير مثله ، ولم يندم على ذلك لأنها لازالت بحالة ممتازة . يحلم بارتدائها في مناسبة خاصة عندما يتذكروه ، ويمنحوه ولو نيشانا بسيطا تقديرا لخدماته الكثيرة والطويلة لبلده ، وهو مستعد للتضحية بنصف راتبه التقاعدى مقابل روءية اسمه على لائحة الشرف . علق البدلة داخل الدولاب ، والتفت الى بقية محتويات حقيبته القليلة .

× × ×

كان الوقت ظهرا ، توزع معظم النزلاء على المقاعد في ردهة الفندق المعتمة بانتظار حلول موعد الغذاء . سمعوا صوتها آتيا من جهة الشرفة قبل أن يروها . انتصب منير في جلسته ، ومر بيده على شعره الاجعد . وايقظت الجلبة اسكندر من غفوة قصيرة فربتت زوجته على يده ، وأخرجت نظارتها ذات الحوافي العريضة المذهبة من حقيبتها . وأخفت رسمية وجهها وراء المجلة التي كانت تتصفحها وتظاهرت بأنها مستغرقة في القراءة . سمعت نادرة تخاطب عفاف :

- أبشّرك . وصلت السيدة تميمة .
- أهلا بها .
- أراك مسرورة !
- وهل يجب أن أحزن ! لست متزوجة حتى أخاف منها على زوجي

ولا مخطوبة وأخشى أن تخطفه مني ٠

- الفرحان بحق وحقيق هو الاستاذ منير ٠

وقف منير عند الباب ليكون أول مستقبليها ٠ ولم يلاحظ نظرات الاستهجان والسخرية التي وجهتها له رسمية من فوق المجلة ٠ صافحت منير ، ودخلت ٠ كانت ترتدى فستانا طويلا ، أخضر بلون عينيها وعليه وردات بيضاء ، وتحمل حقيبة صغيرة ٠ ألقت التحية على الجميع ، وسارت بخطوات رشيقة نحو رسمية ٠ سلمت عليها بحرارة ، ثم دارت على الباقين ٠ تصافحهم ، تسألهم عن أحوالهم ٠ وقفت مارى عند باب مكتبها وفكرت بأن الموسم قد بدأ الان ٠ بحضورها سيتوقف قلق منير ، وسيبدأ عذاب صلاح ، وسيأتي العديدون لزيارتهما يجلسون على الشرفة ساعات طويلة ، يتناقشون بصوت عال يثير حفيظة رسمية ٠ كانت تلك أول مرة يرى صادق فيها تميمة ٠ أعجبه جمالها ، واستاء عندما عرف بأنها متزوجة من تاجر غني ٠

في المساء جلست رسمية ونادرة وبديعة حول الطاولة القريبة من مدخل الفندق ٠ كانت رسمية تشتكي لبديعة من الحر الذى تركته وراءها :

- تعرفين يا أم مارى ٠ في الماضي كانوا يبنون البيوت من اللبن ٠ جميلة وواسعة ٠ باردة في الصيف وكأنها مكيفة ٠ وفي الشتاء دافئة ٠

وقبل أن تجد بديعة تعليقا مناسبا على كلام رسمية ، انبرت نادرة وهي تضع يدها حول كتف بديعة :

- كانت قوالب حلوى وليست بيوت ٠ مصنوعة من اللبن والزبدة والكعك ٠

ضحكت بديعة وخاطبت نادرة :

- أنت تسخرين مني ؟

- أنا ياخالة أم مارى ! صدقيني كانت من لبن وطيبة وحلوة ٠ واذا جعنا نأكلها ، مثل بيوت الساحرات في الحكايات ٠

علقت رسمية في شرود :

- أكلوها .

سألتها عفاف التي سمعتها وهي تخرج من باب الفندق برفقة مارى :

- ماذا أكلتم ؟ هل تركتم لنا شيئا ؟

قالت بديعة في حيرة :

- لم أكن أعرف أن البيوت تأكل .

قالت نادرة :

- الجوع كافر .

خاطبتها رسمية في انفعال :

- لكن الذى يأكل بيته أين يسكن ؟ أين ينام ؟ في الخلاء ، في المقابر !

قالت نادرة :

- الانسان الجائع يأكل أى شيء ... حتى ابنه .

سألتها رسمية مبتسمة :

- وأمه ؟

- وأمه أيضا ، خاصة اذا كانت حلوة وسمينة .

- أم مارى حلوة ... أما أنا فطعمي مر .

قالت بديعة وهي تتطلع الى وسطها المترهل :

- أنا سمينة بالفعل .

أمسكت نادرة بيد امها وخاطبتها :

- أنت الحلوة الطيبة ، ولكنك ضعيفة ولحمك قليل .

مطت رسمية جلدة يدها المتغضنة وقالت :

- جلد وعظم . اعملوا مني شوربة أو ارموني للكلاب .

قالت عفاف محتجة :

- معقول ! نرمي أمنا الحبيبة ؟

قالت نادرة :

- اطمئني . سنعمل منك شوربة في قدر كبير ، ونطعم كل الناس منها .

- ألف عافية .

التفت بديعة لعفاف وقالت لها في توسل :

- دخيلك يا ابنتي . اسحبي كرسيا واجلسي معنا حتى تترجمي لي كلام والدتك واختك . لم أفهم كلمة واحدة منه . ناس تأكل بيوتها أو تأكل البشر ...

قالت نادرة :

- لا حاجة لمترجم أو مفسر . نحن لم نكن نتكلم بالسياسة .

قالت رسمية وكأنها تنفي عن نفسها تهمة :

- أنا لا أفهم بالسياسة . أرى وأسمع ، ولكنني لا أفهم .

قالت عفاف :

- هذا أسلم .

قالت رسمية :

- دوخونا يا أم ماري . صرنا مثل حجر الرحى ، ندور ونلف وندور . نطحن أرواحنا ولا نصل الى أى مكان .

انتصبت نادرة وقالت بصوت مرتفع وبحماس :

- سمعت يا خالة ! اشهدى . هذا هو كلام السياسة بعينه .

قالت رسمية في استنكار :

- مالي أنا والسياسة . أنا امرأة ضعيفة . لا حول ولا قوة . لا أتدخل بالسياسة ولا أكفر بالنعمة .

قالت نادرة :

- هيهات . حتى الفقير الامي الذى لا يفقه شيئا في أمور السياسة ، قالوا له تعال واشتغل بالسياسة ونحن نعطيك ما تريد ، مزرعة خاصة ، بيت كبير - من طابوق وليس من لبن . ونزوجك من معلمة تقبض راتبا في نهاية كل شهر .

سألتها بديعة متعجبة :

- معلمة ؟

- نعم ، معلمة . عندها شهادة وتقبض راتبا . سافرة ، تتزين بالاحمر والابيض ، وتلبس آخر الازياء وأحذية بكعوب عالية .

- وما رأى المعلمات ؟

أجابت عفاف :

- لم يسألوهن .

- لدينا هنا معلمتان . بلقيس والهام ، نسألهما ؟

قالت رسمية في تفرع :

- لا ، أرجوكن . السياسيون يكرهون المزاح ، واذا سمعوا بكلامنا هذا ... فالله يستر .

قالت نادرة :

- لا حاجة للسؤال . الهام ستقبل دون تردد ، وبلقيس كذلك .

قالت عفاف :

- نسيتم معلمة ثالثة . وآشارت بيدها نحو مارى الواقفة بجانبها .

قالت مارى في دهشة :

- أنا !

قالت نادرة وهي تحرك يديها الاثنتين وكأنها تدفع شيئا غير مرئي باتجاه مارى .

- خذيهم كلهم . وألف مبروك عليك .

قالت رسمية في استنكار :

- ومالهم رجالنا . لن تجدى رجالا أحسن منهم ، وهل نسيت أبيك وأهلك . رجال بحق وحقيق . ليسوا مثل أشباه الرجال في هذه الايام ... يعلكون طول الوقت مثل النوق .

ضحكوا . قالت ماري :

- اعذروني . اقترب موعد العشاء .

تعلقت عفاف بذراعها وخاطبتها في استعطاف :

- خذيني معك .

× × ×

جلس صلاح أمام الطاولة الصغيرة في غرفته . نظر الى الاوراق البيضاء المرصوصة على الطاولة ، وأقلام الحبر والرصاص الموضوعة داخل المقلمة ،التي دفع فيها سعرا باهظا لتاجر تحف قديمة . قال لنفسه : لولا هذه المقلمة الثمينة ، لظن من يراني بأني كاتب عرائض ، انتظر الرزق . يهبط علي بصورة ريفي ساذج ، ما أن يقف تحت مظلتي حتى تنطبق عليه مثل فخ صياد ... ولكني صياد خائب ، أجلس هنا لوحدى أنتظر حدوث الصدفة ، المعجزة ؟ أن تختلط العناصر داخل عقلي ، تنشط الانزيمات ، وتتقد الشرارة ، ليحدث التفاعل ، وتأتي الافكار . ولكن لا شيء يحدث في الواقع . أسمع صوتي المذعور داخل عقلي مثل أعمى يتلمس طريقه . صدى أجوف في فراغ لا متناهي . أحبس نفسي بين جدران أربعة ، على أمل الغوص في معاني الحياة العميقة ، التي لا يدركها الاخرون الزاحفون على السطح والمنشغلون بالهوامش ، أفكارهم سطحية ، ولكني غواص فاشل ، لم أعثر حتى الان على لوءلوءة واحدة في كل الصدفات التي جمعتها . ولو مشيت في خطى والدى وأخوتي لاكتفيت بالصدفات التي كانوا يصنعون منها أثاثا فاخرا ، ضمن لنا عيشة مريحة ، ودفع تكاليف دراستي في

الخارج ، والعرس الفخم الذى أقامه والدى عندما تزوج للمرة الثانية ، بعد أن توفيت والدتي . غضب علي لأني لم أحضر الحفلة . في ليلتها لم أجد مكانا أنام فيه فذهبت الى الدكان ، تمددت على أريكة ثمينة ، معروضة للبيع ، وراودتني أفكار الانتقام . أمسكت بسكينة ، وهممت بتمزيق الارائك والمقاعد التي تملأ قاعة العرض ، ولكني لم أمتلك الشجاعة الكافية للاقدام على ذلك ، كما أني لست شجاعا الان لاعترف لنفسي بأن الموهبة تنقصني . بقيت ليلتها ساهرا ، أتنفس الهواء المثقل بروائح الاثاث الجديد ، وأتوعد المرأة الغريبة التي ستحتل مكان أمي في البيت وفي قلب والدنا وفي ملكية هذا الاثاث بانتقام مريع .

الشهر الثاني

قرعت ماري باب الغرفة رقم ١٧ للمرة الثالثة دون جواب . تساءلت مع نفسها ان كان جبرائيل وزير نائما أم مريضا ؟ لقد قلقت عليه عندما لم تشاهده في موعد الافطار وظلت طاولته المعتادة على الشرفة خالية . ولو غادر الفندق لشاهدته ، ولما نسى ترك مفتاحه في مكتب الاستقبال . ولكن أين ذهب ؟ ليس من عادته أن ينزل الى المدينة أو يتنزه حول الفندق . لن يهدأ بالها حتى تتأكد من أنه بخير . لديها مفتاح يفتح أبواب كل الغرف ، ولكنها ترددت فقد يكون الرجل نائما أو يرغب بالانفراد بنفسه لسبب ما . ستقول له بأنها قلقت عليه لأنها لم تشاهده طيلة الصباح . لن يتضايق . على العكس ،سيشكرها على اهتمامها لانه وحيد ، ويحب معاشرة الناس . تراه جالسا في الشرفة يتصفح وجوه النزلاء ، يدعوهم بنظراته واهتزاز رأسه المتواصل ، لعل أحدهم يدنو من طاولته ، يسلم عليه ، ويسحب كرسيا ويجلس . ولا شيء يسعده مثل مشاركته في التفرج على ألبومات الصور العديدة التي يحملها معه أينما ذهب ، وتحتوى على صور للفساتين التي فصلها وخيطها . اذا قبلت والدتي بالجلوس معه لا تمكث طويلا ، لانها تخشى أن يحدث مكروه لوالدى في غيابها ،

يقع من فراشه ولا يستطيع النهوض أو يدخل الحمام لوحده فتزلق قدمه .

تغلبت على ترددها ، وأخرجت حلقة مفاتيحها . بدد ضياء الدهليز عتمة الغرفة . تقدمت خطوتين داخلها ونادته باسمه ، فلم يرد عليها . فكرت بالتراجع ومغادرة الغرفة قبل أن يفيق الرجل العجوز ويجد شخصا غريبا داخل غرفته فيفزع ويضطرب قلبه الضعيف و ... ثم سمعته يسأل بصوت ضعيف : " من هناك ؟ " أجابته بسرعة بأنها ماري ، وانها تأسف لدخول غرفته دون استئذان ولكنها قلقت عليه لأنه لم يتناول افطاره في الصباح ، ولم يخرج الى الشرفة كعادته . رد عليها بأنه لا داعي لاعتذارها ،وانها تستحق الشكر على اهتمامها به وأضاف بأنه وجد نفسه غير قادر على النهوض في الصباح فقرر أن يرتاح في فراشه ، ثم شعر بالنعاس بعد ذلك ، ونام ، ولا بد أنه قضى الصباح كله نائما ، سألته وهي تضع وسادة ثانية تحت رأسه ان كان يريد استدعاء طبيب للكشف عليه ، فقال لها بأنه يرغب بذلك بقدر تشوقه لزيارة الحانوتي الذى سيحضر في يوم قريب ليأخذ قياساته . ضحكت وقالت له بأنها تعرف طبيبا طيب مثله ، لا يأخذ أجرة كشف من الفقراء ، ويعطيهم الدواء مجانا . قال : " ياليت كل الاطباء مثله . الناس تخاف من المرض أكثر من خوفها من الموت في هذه الايام ، خاصة من كان في أرذل العمر مثلي ."

بعد أقل من ربع ساعة ، كان الطبيب جبور يصف سيارته القديمة أمام مدخل الفندق ، وينزل منها حاملا حقيبته السوداء التي اشتراها بعد تخرجه من الجامعة ، ويرفض تغييرها على الرغم من أن لديه ثلاث حقائب جديدة غير مستعملة . سألها وهو يرقى الدرج خلفها عن حال والدها فأجابته بأنه بخير ، وان امها لازالت تصلي وتنذر النذور .

انتظرته خارج الغرفة حتى انتهى من فحص جبرائيل . قال لها وهو يرد الباب وراءه :

- صحته جيدة .... بالنسبة لرجل في عمره. سيتحسن بعد راحة لمدة يوم أو يومين . ثم سألها : " أليس له زوجة ، أولاد يعتنون به ؟" .
- أعرف بأنه غير متزوج . لم أسمعه يتحدث يوما عن أقارب ولا يزوره أحد .
- وماذا كان عمله ؟
- كان خياطا نسائيا مشهورا . توقف عن العمل قبل عدة سنوات بسبب ضعف بصره .
- كلنا على الطريق .
- في صوتك رنة تشاؤم لم أتعود سماعها منك .
- عاجلا أم آجلا يجب أن نعترف بذلك .
- وأين يذهب أهل القرية الذين يعتمدون عليك ؟
- يحل محلي طبيب شاب أكثر علما ، يأخذ أجرته نقدا وعدا وليس صفائح زيتون مثل حالتي . يجمع ثروة ويتزوج أجمل بناتهم .
- اسمح لي يادكتور أنت تظلم نفسك بهذا الكلام ، وكأنك لا تعرف مقامك بيننا .
- مقامي ! أنا متأكد بأني لو تجرأت وخطبت احدى بناتهم لرفضوني لأني طبيب فقير .
- يرفضوك . أنت ما عليك الا الاشارة باصبعك الى الفتاة التي تريدها ، وأنا أعدك بأنها ستكون الى جانبك في الكنيسة ، بثياب العرس ، في الاحد القادم .

قال في نفسه وهو ينزل الدرج : لو كنت جريئا لصارحتك بأن لا حاجة لرفع اصبعي لان التي أريدها زوجة لي ليست " هناك " بل " هنا " ولا يبعدني عنها سوى خجلي وخوفي من رفضها .

تأففت بلقيس بصوت مرتفع ، وراحت تدق بكعب حذائها الرصيف في عصبية . مضت أكثر من نصف ساعة وهما ينتظران اكتمال عدد ركاب سيارة الاجرة . سيتأخرا عن موعد طعام الغداء المدفوع ثمنه ضمن اجرة الاقامة ، وأصحاب الفندق يرفضون تقديم الطعام خارج المواعيد ، ولا اعتراض على ذلك ، فهي مديرة مدرسة وتعرف أهمية النظام . بحثت بعينيها عن سائق سيارة الاجرة ، فوجدته جالسا على سياج الحديقة ، ينظر الى كيس ورقي بين قدميه ، وشاهدته يخرج ثمرة خوخ من داخله ، ويضعها بين أسنانه . تحت تأثير كراهية مفاجئة نحو السائق تصورت أن أسنانه تخطىء هدفها ، فتعض لسانه بدلا من الخوخة ، وان السائل القاني الذى يلطخ فمه وذقنه ليس عصيرا بل دمه المسفوح . أزعجتها الفكرة فحولت نظراتها الى الهام الواقفة بجانبها ، وسألتها للمرة الثالثة في أقل من ربع ساعة عن الوقت . وبعد أن أجابتها صديقتها ، مدت يدها وأمسكت بمعصمها بشدة ثم قلبته لترى الساعة . خاطبتها في غضب .

— لماذا تكذبين علي وتأخرين الوقت ؟

أجابتها الهام وهي تفرك معصمها الذى تركت عليه أصابع بلقيس بصمات دموية :

— أوجعتيني. كدت تكسرين يدى . وأضافت مع نفسها : هذه كلابة وليست يد ادمية . كانت الهام تراقب صديقتها وتدعوأن يصل الركاب الثلاثة قبل أن تغور أعصابها . أبدت استعدادها لدفع أجرة السيارة كاملة ، لكن بلقيس عارضت واتهمتها بالتبذير . تحول غضب بلقيس الى سائق سيارة الاجرة :

— هل سننتظر حتى المساء ؟

رفع وجهه نحوها وهز رأسه وكتفيه في حركة مبهمة و مسح قطرات العصير العالقة على ذقنه .

- انظرى اليه ، يأكل مثل ... ولم تكمل ، ثم أضافت : ونحن نتضور جوعا .
- سيسمعك .
- ليسمع ! ... سيحرمنا من ركوب سيارته الرولزرويس !
- اطمئني ، سنكون في الفندق قبل انتهاء موعد الغداء . هل أشترى لك زجاجة مرطبات تبرد قلبك .
- أنت قلبك بارد . رجلاى تورمتا . الى متى ننتظر ! ثلاث ساعات ونحن ندور ونتجول في الاسواق على معدة فارغة لم يدخلها منذ الصباح سوى قطعة جبن وأربع حبات زيتون ... أنت المسوءولة . ساعة بأكملها قضيتها في دكان بيع الملابس الداخلية . ألا تستحيين! امرأة في عمرك وتشترين ملابس نوم ، شفافة وحمراء . لمن ؟ حتى تلبسينها في غرفة نومك ، وتخطرين أمام المرآة ، وكأنك عروس و...

تضرجت وجنتا الهام وقالت في استنكار :

- أنا ! والله لم اشترها لنفسي . قلت لك بأنها لصديقتي كريمة . اذا لم تصدقيني اسأليها بعد عودتنا .

أحست الهام بيد تجذبها من كمها . التفتت لتشاهد صبيا يرفع صندوق علكة نحوها . نظراته المستعطفة ووجهه المتسخ وملابسه الممزقة حركت في نفسها مشاعر مهملة . تمنت لو تستطيع ضمه الى صدرها حتى يطمئن ويختفي القلق المبكر الذى يشوه وجهه الطفولي . تأخذه معها الى بيتها لتغسله وتخيط له ملابس جديدة . فتحت حقيبتها ، وأخرجت أصغر قطعة نقود وجدتها بداخلها ، ورقة بخمس ليرات .

سألتها بلقيس في سخرية :

- لماذا تشترين علكة ؟ هل تشعرين بالتخمة ؟

وضعت ورقة النقود في العلبة ، وتناولت علبتين . فتش في جيوبه ، وعد نقوده فوجدها غير كافية . قالت له :

- اصرف الخمس ليرات وسأنتظرك هنا .

تردد الولد قليلا ثم انطلق راكضا عبر الشارع .

قالت بلقيس :

- لن تريه ثانية .

- ان بعض الظن اثم .

- لا تعظيني ، انتظري وسترى .

دعت الهام في سرها أن يعود الولد بباقي الخمس ليرات ، لا لشيء سوى أن تثبت لصديقتها بأنها مخطئة وان الناس ليس كلهم أشرار . ونذرت بأنه لو عاد فستعطيه ليرة مكافأة له على أمانته .

اقترب منهما بائع علكة آخر . قالت بلقيس بعد أن طردته بأنه يشبه الاول ، ولا تستبعد أن يكون أخاه أرسله لك لتعطيه خمس ليرات أخرى . لم تفقد الهام أملها بعودته بباقي نقودها حتى بعد أن اكتمل عدد ركاب سيارة الاجرة وركبا السيارة . وتلفتت باحثة عنه وسط الزحام عندما انطلقت السيارة بهم نحو الجبل ، ولكنها لم تشاهده . وردت على ابتسامة بلقيس الساخرة بأنه لم يجد أحدا يصرف له الخمس ليرات .

× × ×

وقف خليل على الرصيف المقابل . كان القصر ضخما يشبه قلعة صغيرة بواجهته الحجرية ومداخنه الكبيرة وسقوفه القرميدية . قرر عبور الشارع قبل أن يراه أحد ويظنه لصا يستكشف المكان تمهيدا للسطو عليه .

ضغط مفتاح الجرس ، ومرت ثوان عديدة قبل أن تفتح البوابة الحديدية ، ويبرز من ورائها رجل أصلع ضخم . تفحصه في ارتياب قبل أن يسأله عما يريد ، فقال له بأنه يرغب بمقابلة السيد توفيق . سأله ان كان لديه موعد فأخرج من جيبه ظرفا فيه رسالة قضى عدة ساعات في كتابتها ، وترجاه أن يسلمها للسيد توفيق . تناول الرجل الرسالة وأغلق الباب خلفه . عاد بعد دقائق ليقول له بأن السيد توفيق سيقابله .

سار خليل وراء البواب عبر حديقة القصر . على جانبي الممر العريض أشجار آس مقصوصة بعناية تتخللها فتحات . كان الهواء رطبا ومشبعا بروائح الزهور والخضرة اليانعة . وسط أشجار التفاح والكرز المثمرة تقبع نخلة قميئة لم تثمر بعد ، مثل خادمة قروية وسط " قبول " بغدادى . تابعت عيناه زحف النباتات المتسلقة الكثيفة على واجهة القصر حتى نافذة في الطابق الاول تقف عندها فتاة جميلة ، يتدلى شعرها الاشقر على كتفيها . التقت نظراتهما لحظة واحدة ثم حولت بصرها الى مقص الحديقة الذى كانت تقلم به الاغصان الزائدة . على دكة اسمنتية جلس رجل ، راقبهما في فضول ، ولاحظ خليل بندقية الصيد الراقدة على فخذيه .

ظل خليل واقفا في غرفة الاستقبال التي قاده اليها البواب . أجال بصره مبهورا بمحتوياتها من أثاث فاخر ولوحات ثمينة وتحف منثورة على الطاولات وثريات ضخمة تتدلى من السقف المزخرف . اجتذبت اهتمامه لوحة زيتية كبيرة لمنظر زقاق في أحد أحياء بغداد القديمة يجرى في وسطه مجرور مكشوف وعلى جانبيه أبواب مفتوحة يستر أهلها غير المرئيين ستائر كالحة اللون. تفحصها خليل بعين ناقدة ، فوجدها ناقصة ، وهو يعرف ذلك أفضل من الفنان الذى رسمها من الذاكرة ، وأفضل من توفيق الثرى الذى لم يوسخ حذاءه بوحل الازقة ، لانه عاش في بيت مثل هذا الذى تصوره اللوحة ، ولعب في زقاق أقذر من هذا ، ولا يتذكره خاليا مهجورا هكذا ... أين الاطفال الذين يلعبون

بالمياه الاسنة ، وامهاتهم الواقفات عند الأبواب ، وتعابير وجوههن تنطق بالضجر والقرف ، والمكارية وحميرهم . قضى طفولته وشبابه في بيت صغير في مثل هذا الزقاق ، ينام على بكاء أطفال الجيران ، ويفيق على شجار أبويهم . تعود على رائحة المجارير الطافحة فلم تعد تزكم أنفه . كان بيتا مستأجرا. وقطعة الارض الوحيدة التي يمتلكها في وطنه هي الامتار المربعة القليلة في المقبرة التي دفن فيها زوجته .

- هل أعجبتك اللوحة ؟

استدار ليراه واقفا عند الباب . لم يكن طويلا أو وسيما كما تخيله من صوره التي كانت تنشرها الجرائد . وضع عكازه على طرف المقعد وجلس .

قال مبتسما :

- ابنتي رسامة .

قال خليل في حماس :

- جميلة جدا ... أقصد اللوحة .

انحنى ليحمل بيديه الاثنتين علبة خشبية من على الطاولة .

- هواية ، تسلي نفسها بها .

هز خليل رأسه موافقا . فتح توفيق العلبة ، وقدمها لخليل الذى شكره قائلا بأنه لا يدخن . استخرج سيجارا من العلبة . أزال عنه غلافه بحركة سريعة وقربه من أنفه :

- عادة ذميمة لم أستطع التخلص منها - أشعل السيجار واستأنف : الطبيب منعني من السكريات فصرت أشرب الشاى مرا ، ومنعني من التدخين فلم أعد أدخن بل أنفخ .

وبرهانا على كلامه راح يملأ فضاء الغرفة بدخان سيجاره . تذكر خليل صورة له . كان أحد المصورين المشهورين يزين بها واجهة محلة في شارع

الرشيد . كان يضع قرنفلة في عروة سترته الرسمية ، وينظر في برود الى عدسة المصور ، أما الرجل الجالس أمامه فيبدو واحدا من المتقاعدين الذين يقضون ساعات النهار في مقاهي المربعة وسيد سلطان علي ، يجترون ذكرياتهم ، ويتفرجون على السابلة .

قال وهو يتفحص وجهه :

- وجهك مألوف . التقينا من قبل ، لكني لا أتذكر أين ومتى ؟

قال خليل متأملا أصابع يديه المشبوكة :

- كنت موظفا صغيرا في الداخلية . تركت الخدمة بعد الانقلاب .

رفع توفيق حاجبيه الكثين وقال وهو يصوب سيجاره نحوه :

- أنت من الجنود المجهولين .

ابتسم خليل وقال :

- والفاشلين - مع الاسف .

ضحك توفيق حتى احمرت العروق الدقيقة الظاهرة على أرنبة أنفه ووجنتيه . ذكره المنظر بموظف كان يتباهى بأن الطبيب حلل دمه فوجد فيه كحولا أكثر مما في الفودكا .

- قل لي ... هل أنت مطلوب ؟

- أعتقد ذلك .

كذب عليه ، قبل حوالي شهرين استلم رسالة من أحد أقربائه ، يخبره فيها بأنه سأل بعض الناس - لم يحدد من هم - الذين أكدوا له بأنه يستطيع العودة ، ولكنهم لن يعيدوه الى وظيفته . لو يستطيع التأكد من ذلك.. الطريقة الوحيدة هي أن يعود ليتأكد من ذلك بنفسه . يخاف . أحس بنظرات توفيق الفاحصة عليه ، وكأنه يحاول اختراق قناع الضحية البريئة المرتسم على وجهه .

- أنت مخلص ، وتستحق المساعدة . سأحاول - في حدود امكاناتي المتواضعة .

قال خليل :

- يكفيني شرف مقابلتك والتعرف عليك .
- وأنا أيضا . اعتبرني أخا أكبر . أريد منك أن تزودني ببعض المعلومات عنك ، عن شهاداتك وخبراتك . وأنا أعدك بعرضها على جماعتنا هنا ، وكلهم ، مثلي ، يقدرون المخلصين الأوفياء ... سأكون بانتظارك .

أدرك خليل بأن الزيارة قد انتهت فقام مستأذنا . سار توفيق أمامه ببطء ، متوكئا على عكازه . وقبل أن يبلغا الباب ، توقف واستدار ثم خاطبه :

- لم نكن رديئين - كما يقولون عنا .

بهت خليل . كان يهيء نفسه لتوديعه ، وقبل أن يرد عليه بكلام مناسب مد توفيق يده . ودعه وخرج . أحس بسخونة في وجهه ، وخشي أن يكون الرجل قد أساء فهم صمته . التفت الحارس المسلح على صوت اغلاق الباب . قال خليل لنفسه : لا بد أنه يتساءل عن المبلغ الذى تصدق به علي ، ولن يعرف بأني رفضت في اباء المائة ليرة التي حاول دسها في يدى .

× × ×

عاتبت الزوجة الثانية زوجها قائلة :

- الله يهديك . ماذا خطر ببالك حتى تنزلنا في هذا الفندق !

سألها متعجبا :

- وماذا يعيبه ؟ هواء نقي وناس طيبون وطعام شهي .
- مالنا نحن والناس . هواء الجبل موجود في كل مكان حولنا أما

طعامهم فلبن وثوم ، لا يأكلون شيئا الا بعد أن يغرقوه في اللبن .

ضحك صادق وابتسمت الزوجة الاولى وهزت رأسها بالموافقة واستأنفت الزوجة الثانية :

- حتى أم طارق تتفق معي .

تقلصت ابتسامة ضرتها ثم اختفت .

- لو كنت أعرف بأنك ستسكننا في هذا النزل الوضيع لفضلت البقاء في بيتي .

قال صادق دون غضب :

- ألم أخيرك بين بيت مستأجر وفندق وأنت فضلت الفندق . صحيح أم لا ؟

التفت الى زوجته الاولى وكأنه يريد اشهادها على صحة كلامه ، ثم تذكر بأنه لم يسألها عن رأيها ، وخزته أشواك الضمير فتحاشى النظر في عينيها حتى لا يرى فيها العتاب الصامت الذى يستحقه :

- لو نزلنا في فندق قريب من المدينة ...

قالت ضرتها :

- كل الفنادق سواء . هذا فندق عائلات . أصحابه ونزلاوءه محترمون لا يبيعون فيه المنكر ..

قاطعتها الزوجة الثانية بحدة :

- أرجوك يا أم طارق . لا تتدخلي بيني وبين زوجي . واذا كان الفندق داخل مزاجك فباستطاعتك البقاء فيه أنت وولديك .

- أنا المخطئة . يا ليتني لم أفتح فمي .

قالت الزوجة الثانية في سخرية :

- عدنا الى المسكنة .

زفر صادق في انزعاج وقال :

- لا أنت ولا هي . أنا وحدى المسكين .

قامت الزوجة الاولى وقالت بأنها ستعود الى غرفتها .

جذبت بلقيس ردن الهام وقالت لها :

- انظري ، عاصفة في الخم .

لم تفهم الهام فأضافت بلقيس وهي تشير برأسها الى الطاولة التي يجلس عليها صادق وزوجته الثانية :

- انظرى . ديك ودجاجة وفروجة .
- الدجاجة مسكينة .
- وهل تحسد الفروجة على حالها ؟ حتى الديك دائخ وعرفه ذبلان .

× × ×

تأملت رسمية نادرة الجالسة بجانبها . كانت ساهمة فلم تشعر بنظراتها . تساءلت في سرها عما يدور في ذهن ابنتها . تجتر ذكريات لن تجلب لها سوى المزيد من المرارة ، فهي لم تعرف سعادة حقيقية في حياتها حتى الان . جربت التعاسة وخيبة الامل في وقت مبكر ، فتعكر صفو حياتها ، مثل الجائع الذى تلسع لسانه أول لقمة ساخنة يضعها في فمه ، ولا يعود بعدها يشعر بشيء سوى لذعة الالم . من عيني ابنتها يأس فلاح ينظر الى سماء زرقاء صافية ليس من أفقها البعيد نتفة سحاب . لو كان بيدى شيء أفعله لأعيد الغضارة الى حياتها المتصحرة لما ترددت ،ولذهبت الى أبعد الحدود ، أبيع حصتي من الارض ، وأصرف ما تبقى من نقودى ، وأتحمل ذل الاقتراض من أخوى المتكبرين من أجل اسعادها . أحتار في كيفية التصرف معها - أنا أمها التي تجاوزت الستين ! - أتهيب من التحدث معها ، أفكر مليا وطويلا وأختار كلماتي بعناية وحذر حتى لا تسيء فهمها . ومع ذلك غالبا ما تتحول أحاديثنا الى نقاش حاد وأحيانا الى شجار ، لعلها غير قادرة على النسيان . أليس هو أفضل دواء لكدمات وجروح النفس ، بدونه تتحول النفس الى سلة مهملات ضخمة ، ندفن فيها كل مايزعجنا ، ونظن بأننا تخلصنا منها نهائيا ثم تتعفن ويرتفع نتنها . تنهدت بصوت مسموع ، سمعتها نادرة فسألتها :

- هل أخذت دواءك اليوم ؟

ردت عليها مشتكية :

- أخذته ، مثل البارحة وأول البارحة ، ولكن ما الفائدة ؟ سيمد في عمرى حتى أبلغ عمر شعيب !

تململت نادرة وقالت في انزعاج :

- ما هذا التشاؤم ! وفي أول النهار .

طغى ضجيج سيارة مارة على صوت رسمية فسكتت بعد أن همت بالاجابة . رفعت قدح الليمون ورشفت منه قليلا . عادة للتفكير بابنتها : كانت المدللة

لدى أبيها . تطلب فلا يرفض لها طلبا . تتعلق بساقه في الصباح فيأخذها معه في جولته . لايزعجه فضولها الشديد ولا أسئلتها الكثيرة عن البساتين والاشجار والحيوانات . كانت تجلس على فخذه وتسند رأسها على صدره العريض ، وتوجه له السؤال تلو الاخر ، وكان ينصت لها ويجيب على أسئلتها دون ملل أو تذمر .

تابع جبرائيل الحديث المقتضب الذى دار بين رسمية ونادرة . اجتذبت اهتمامه حركات جسميهما ، وكأنهما قطبا مغناطيس مختلفان ، متنافران . كانا في جسم واحد ، ملتحمين ، وبعد انفصالهما أصبحا على طرفي نقيض ،جزيرتين متجاورتين . سمع صوت تميمه وهي تلقي التحية عليهما . فتح عينيه ليراها وهي تسحب كرسيا وتجلس معهما . أغمض عينيه وعاد الى أفكاره : أما هذه المرأة فهي أم فاشلة دون شك لأن حياتها توقفت عند دور الفتاة الجميلة التي تفتن الرجال . أراهن بأنها لا تعرف مكان ولديها في هذه اللحظة . انها تذكرني بزوجة الاب الاسطورية التي تقضي وقتها أمام مرآتها السحرية ، وحتى لو كانت منافستها هي ابنتها الوحيدة وليست ابنة زوجها فستغار منها ، وقد تراودها فكرة ارسالها مع صياد مرتزق الى أقرب غابة .

هبت نسمة شرقية تحمل أريج خضرة يانعة وأزهار جبلية ، ذكرته برائحة الصرر الصغيرة التي كانت تدسها أمه بين طيات ملابسها . وجدته مرارا يقف أمام دولاب ملابسها المفتوح يتأمل أثوابها المعلقة في انبهار فنان مبتدىء يزور اللوفر لأول مرة . رفضت في البدء تعليمه الخياطة والتفصيل لانها كانت تتمنى أن تراه طبيبا أو محاميا ، واستسلمت في النهاية أمام اصراره وعناده. علمته كل ما تعرف ، ولم يكن ذلك بالكثير ، ولكنها كانت بداية جيدة . ولم يمض وقت طويل حتى أتقن مهنته ، وذاع صيته بين نساء الاثرياء ، وتضاعفت أجرته . ولم يعد قادرا على العمل لوحده فوظف مساعدين له ، واقتصر عمله على القص والتفصيل واقناع الزبونات اللجوجات بأنه لا يستطيع اجتراح المعجزات وخياطة فستان بسرعة الجنيات ، لجأ الى رفع أسعاره فكانت النتيجة بعكس توقعاته

اذ ازداد عددهن بدلا من أن يقل . ثم اكتشف سر هذا الاقبال ، فالخياط الجيد مثله هو الملاذ الاخير للنساء الغنيات ، فبعد أن يستنفذ جراحو التجميل امكانات علومهم ومهاراتهم في اصلاح تخريب السنين على وجوههن وأجسامهن ، ويعجز المدلكون عن اعادة الرشاقة والليونة الى أجسامهن المكتنزة بلحوم وشحوم المآدب اليومية يلجآن الى الخياط لستر ما يرغبن في ستره من نهود مرتخية وعجيزات مترهلة وظهور مقوسة .. جاءت النهاية مبكرة . توفيت والدته ثم ضعف بصره . كان يتفاخر بأن أزياءه لا تقل جمالا وفنا عن اللوحات التي تقام لها المعارض ، ويحلم باستئجار قاعة كبيرة في أحد فنادق بيروت الكبيرة ليقيم فيها معرضا لأزيائه . ويقول لنفسه في حسرة بأنه لو كان فرنسيا لأغدقت عليه حكومته الاوسمة والنياشين ، ولتحدثت عنه الصحف والمجلات والاذاعة .

أيقظته الضوضاء ففتح عينيه . كانت تميمة لاتزال جالسة في مكانها ، وأمامها منير يشرثر في صوت غير مسموع ، ويهز النرد في يده . رماه ثم ندت عنه صيحة غضب . رفع رأسه الى السماء شاكيا حظه السيء ، ضحكت تميمة وهي تلتقط النرد في حركة رشيقة . وشاهد جبرائيل صادق يتابعهم بنظراته في شغف واضح .

× × ×

اختارت تميمة احدى العلب المرصوصة داخل حقيبة زينتها . لا تتذكر من قالت لها بأن البيضاء ، ذات البشرة الشفافة مثلها ، تهرم بسرعة وتظهر التجاعيد عليها قبل غيرها ، ولكن كلامها ظل محفورا في ذاكرتها . لقد اقتربت من الثلاثين ، وبعد أن يذبل جمالها ستصبح امرأة عادية . لو لم تكن جميلة لما تزوجها أنيس الذى كان بامكانه التزوج من أى فتاة بأمواله الكثيرة ومكانة عائلته العريقة . قال لها منير حكيم في أحد الايام بأن الرجل الثرى يختار زوجة شابة جميلة مثلما يقتني تحفة نادرة وثمينة ، يتمتع بها قليلا ويتباهى بها لبقية الوقت . وكان يعنيها بكلامه. لأمها رأى مختلف : ماذا تطلب

الفتاة أفضل من زوج ثرى يدللها ويلبي طلباتها ؟ ووافقها أبي في حماس . لم أكن قد بلغت السابعة عشر عندما تزوجنا . أذهلني غناه وبذخه . فرحت بسيارته الفارهة كما تفرح طفلة بلعبة جديدة ، وفي قصره الفخم درت حول نفسي ، مقلدة ممثلة سينما في فيلم مشهور ، حتى شعرت بالدوار . قالت لنفسها وهي تدوف المرهم على خدها : اذا كان أنيس قد اشتراني ليضعني بين تماثيل البورسلين الثمينة التي تملأقصره فسيعرف بأني لست تمثالا متحركا وان رأسي الجميل ليس فارغا تماما ، وهو الذى كشف لي عن ذلك ، دون تعمد أو تخطيط مسبق ، فهو لم يتخيل قط ان زوجته المدللة التي لم تقرأ في حياتها سوى الكتب المدرسية وبعض القصص العاطفية ستتحول يوما ما الى قارئة شرهة ، تلتهم الكتب التهاما كما لو كانت قطع حلويات ، وتفضل حضور الندوات الادبية والشعرية على مجالس الثرثرة الفارغة عن الازياء والفضائح . بدأ ذلك قبل سنوات . قادها الفراغ في أحد الايام الى مكتبة زوجها ، وشجعها السأم على مد يدها وسحب مجلد من بين المجلدات الكثيرة المرصوصة على رفوفها . أعجبها الكتاب ، فقرأت ثان،وأصبحت مدمنة على القراءة بعد أن وجدت فيها لذة ليس لها مثيل ولا حتى في التمرينات النادرة والقصيرة التي يوءديها زوجها في سرير الزوجية بحماس وكفاءة بيروقراطي .

انتهت من ازالة الاصباغ من على وجهها . تناولت علبة دواء ، وأخرجت منها قرصا واحدا . مرت أكثر من سنة منذ أن بدأت في تناول قرص منوم واحد في كل ليلة تقريبا . حذرني الطبيب من أنها ستصبح عادة لا يمكن الفكاك منها بسهولة ، وحاولت عدة مرات التوقف . قلت لنفسي في غرور : اذا كان المطلوب هو ارادة قوية فسأنجح ، ولكني فشلت . في كل محاولة كنت أقضي ساعات طويلة مسهدة ، أتقلب في فراشي وألعن الاطباء وأدويتهم . اشتكيت لأنيس ، توقعت أن يبدى اهتماما . أن يمسك بيدى . يسألني عما يوءرقني ، وتمنيت أن أرى في عينيه قلقا ـ ولو مصطنعا ، أن يثبت لي ، ولو لمرة واحدة ، بأنه لا ينظر الى

مثل تمثال بورسلين آخر يرقد في خزانة زجاجية ، يستخرجه بين حين وآخر ، ليمرر أصابعه على تقاطيعه ، ويتلذذ بملمسه ثم يعيده الى مكانه . يعاملني مثل طفلة صغيرة مدللة ، اذا غضبت يقول لي لماذا لا تخرجين لشراء ملابس جديدة أو تسافرى الى أوروبا مع صديقاتك . لا يفهم بأني كبرت وأصبحت امرأة ناضجة ولم أعد بحاجة الى أب أو أب بديل . لو كان حاضرا اليوم ليسمع ماقاله لي منير من كلمات حلوة فهل كان سيشعر بالغيرة ، أم يعتبرها اطراء لذوقه في اختيارها . حتى رجل الاعمال مأمون معروف يعرف كيف يتملق امرأة . ابتسمت وهي تتذكر قوله بأنه لو كان ينظر الى وجهها لما استطاع التركيز في اللعب ولما تغلب عليها ، واتهمه منير في لوءم بانه يقرأ أفكاره .

أحست بجفونها تثقل ، وقبل أن تستسلم للنوم ، سمعت الصوت الخافت . جاهدت المخدر لتبقي حواسها مستيقظة ، لانها كانت متأكدة من أن الصوت آت من مكان قريب ، لم تستطع تحديد مصدره بالضبط . ثم تكرر الصوت ، من مكان أقرب هذه المرة ، من داخل غرفتها ، ثم شاهدته ظلا سميكا بين الظلال ، شبح داكن شغل حيزا صغيرا من مدخل الغرفة . زفرت في ارتياح لدى سماعها صوته الرفيع يناديها ، ومرت عدة ثوان قبل أن تستعيد السيطرة على أعصابها وعلى حنجرتها المشلولة بالذعر . سألته موءنبة " ماذا تفعل هنا؟ " فرد عليها بصوت غير مسموع . أمرته بالاقتراب منها وشاهدته يتلمس طريقه في الظلام . فتحت له أغطية الفراش وهي تدعوه ليقترب على مهل لئلا تصطدم قدمه بالسرير . تلكأ قليلا قبل أن يستجيب لدعوتها ، ثم اندس في الفراش بجانبها ، مبددا بجسمه البارد دفء السرير . تمنت أن يكون ظنها مخطئا وهي تمد يدها نحوه ، ولكن منامته كانت مبللة . سحبت يدها في تقزز وخاطبته غاضبة : " مبلول! مرة ثانية ، أف.أنت لست طفلا ! " لقد أخافها ، وأطار النوم من عينيها ، وستضطر لتناول قرص منوم آخر . قرصته في يده حتى صرخ متألما . قامت من سريرها لتساعده في تغيير ملابسه وهي تردد :

- هذه قسمتي . من ستقبل بالزواج منك وأنت تبول على نفسك كل ليلة . كلكم متفقون على تنغيص عيشتي ، أنت وأبوك وأختك ، ولن تتركوني حتى أموت غما .

× × ×

أفاقت ماري بعد الفجر بقليل . تسللت من فراشها ، وارتدت ملابسها في صمت محاذرة من اصدار صوت يوقظ اختها . دست قدميها في حذائها البيتي الخفيف الذى تكرهه لانه بدون كعب ، ويكشف عن قصر قامتها ، ولكنه لا يصدر صوتا أثناء تجوالها في أروقة الفندق عندما يكون النزلاء نيام . دخلت قاعة الطعام لتفتح نافذتها العريضة . وظلت واقفة عندها ، تملأ رئتيها بهواء الفجر البارد حتى استيقظت حواسها تماما . كانت في طريقها الى الحمام عند نهاية الممر عندما سمعت أصواتا خفيفة صادرة من الغرفة التي تنزل فيها الزوجة الاولى لصادق مع ابنهما . سمعتها من وراء الباب تبكي بصوت مكتوم ، وتردد كلمات شكوى وعتاب لم تتبين معظمها . وتمنت لو كانت الى جانبها لتواسيها ، ولكن ماذا ستقول لها ، وماذا تعرف هي عن معاناة وآلام هذه المرأة . خطت مبتعدة وقد تبدد انشراحها .

× × ×

شاهدته رسمية قبل الاخرين . من مقعدها عند الطاولة القريبة من المدخل كانت ترصد كل شيء يتحرك على الشارع المحاذى للفندق . لمست معصم ابنتها عفاف ، وأومأت برأسها باتجاهه . كان يصعد الطريق المؤدى الى الفندق ببطء حاملا على كتفه حقيبة ضخمة . توقف عند مدخل الفندق وأنزل حمله الثقيل . كان رجلا ضخم الجسم ، يصعب تقدير عمره من قسمات وجهه المنحوتة . أشرق وجهه بابتسامة عريضة ، فانفرج شارباه مثل جناحي طير صغير. ألقى التحية بصوت عال . نادته رسمية في لهجة آمرة : " الياس تعال ".

ومع أن اسمه هو خضر وليس الياس ، فقد تهللت أساريره ، وحمل حقيبته وخطا نحو طاولتها . سحب كرسيا ليضع عليه حقيبته . وبعد أن فتحها تراجع خطوة ويداه معقودتان على صدره في وقار كاهن ، ثم تقدم ليرفع بأصابع يديه قميصا وردى اللون مطرزا بوردات صغيرة عند الكتفين والصدر وأعلن بافتخار ، وهو يديره يسارا ويمينا مثل حاوي يوشك أن يبدأ بعرض حيله :

- حرير طبيعي ، افرنسي ، يليق بالشابات الصغار ، كان ينقل بصره بين عفاف ونادرة اللتين ابتسمتا في سخرية . مدت رسمية يدها وعركت قماشه ثم أبعدته في اشمئزاز

- هذا حرير طبيعي ! الظاهر نسيتني يا الياس . أنا لست من المعطافين الذين ينخدعون ببضاعتك الرديئة . لم تفارق وجهه الابتسامة وهو يرد عليها :

- وهل من المعقول أن أنساك وأنت أحسن زبونة لدى . صدقيني بأنه حرير . انظرى الى المكتوب هنا وقلب ياقة القميص وقربه منها .

دفعت القميص بعيدا عنها وقالت :

- رأيته ، رأيته . وهل أنا عمياء أم لا أعرف القراءة . هذا كلام أنتم تطبعوه وتلصقوه على الملابس .

اجتذب الحوار الدائر بين رسمية والبائع اهتمام ثومبسون الجالس عند طاولة قريبة . ذكره بقصة بائع جوال ، سمع عنه ولم يره . تصوره حاذقا مثل هذا ، لكن ذكاءه لم ينجيه ، صدق وعودهم مثلما صدقها بسطاء كثيرون، مثلي ، خدعتهم وعود الشرف العسكرية وأبهة الملابس المرصعة بالتيجان والنجوم البراقة والاشرطة الحمراء . كان يسوق حماره المثقل بالحلي الاصطناعية ، والاقمشة الملونة بألوان صارخة كما يفضلها الريفيون ، والعطور النفاذة المصنوعة محليا ، والخيوط وابر الخياطة ، وأواني المطبخ ، ويصعدان

سوية سلاسل الجبال العالية في شمال العراق ، التي تغطي الثلوج قممها على مدار السنة ، وفي فصل الخريف ينحدر على ضفاف الجداول والانهار ، حتى يصل الى مستنقعات الجنوب . كان يروى للجميع بأنه زار كل بلدة وقرية في وطنه ، ويعرف وجوه سكانها واحدا واحدا ما عدا البدو الذين لم يقصدهم سوى مرة واحدة ، فسلبوه بضاعته ، وسرقوا حماره ، وضربوه حتى شجّوا رأسه وتورم ظهره ،وتركوه عاريا الا من ملابسه الداخلية . ومثل كل الباعة المتجولين تعلم لغات ولهجات أهل البلد ، فكان يتكلم الكردية دون مشقة ، ويحاور فلاحا جنوبيا بلهجته المحلية . اختاروه من بين مرشحين عديدين . حفظوه الرسائل التي أرادوا ايصالها الى روءساء القبائل ووجهاء البلد وأرسلوه اليهم . وبعد أن أكملت قوات الامبراطورية احتلالها جاءهم يطالب بثمن خدماته كما وعدوه . ولم يشك قط بأنهم لن يفوا بوعدهم - وياليتهم اكتفوا بذلك . يتصوروه في ذلك اليوم الذى ساق فيه حماره نحو المعسكر ، وعلى ظهره فردان فارغان ، جاء ليملأهما بالذهب الموعود . لم يوءخروه أو يمهلوه . قادوه الى مكان قريب وأطلقوا على رأسه عدة رصاصات ، ثم دفنوه في قبر ضحل خلف ميدان الرمي دون غسل أو كفن أو صلاة - وهكذا انتهت حياة جندى من جنود الامبراطورية المجهولين .

ارتفع صوت رسمية محتدا :

- خرقك هذه تبدو مستعملة ، ولا تصلح الا للخدم . نحن نشتريها هدايا لخدمنا .

خاطبها معاتبا :

- هذه ثياب مستعملة ! - واستدار ليشهد الجميع على الاجحاف الذى وقع عليه وعلى بضاعته - هذه بضاعة فاخرة لن تجدى مثلها بهذه الاسعار في كل أسواق بيروت .

كافأته على صبره وتحمله لملاحظاتها القاسية بشراء أربعة قمصان وخمس

ربطات عنق ، انتقل بعدها الى طاولة صادق . أوحى البائع الجوال لصلاح بفكرة قصيدة ، يصوره فيها حاملا حقيبته الضخمة التي أودعها كل أحلامه ، متنقلا بين فنادق الجبل ، متحملا فظاظة الزبائن ـ كان أبوه بائعا جوالا في شبابه لكنه يكره أن يذكره أحد بذلك ـ وقفز الى ذهنه مشهد مأساوي يختتم به القصيدة : يعبر البائع المنهك شارعا دون أن ينتبه لسيارة مسرعة لاتخطئه . ويلفظ أنفاسه الاخيرة وعيناه ترمقان في أسى بضاعته المبعثرة على قارعة الطريق وحياته المهدورة . ثم طفق الشاعر يقدح ذهنه باحثا عن عنوان مناسب لقصيدته في لهفة أب يختار اسما لمولوده الذكر المرتقب .

بعد وقت قصير من مغادرة البائع للفندق ، دخلت بلقيس والهام . نادت رسمية على بلقيس فسارت نحوها . أنزلت الأكياس العديدة الطافحة بالملابس من يدها ، وجلست على المقعد الفارغ .

اشتكت في لوعة :

- السوق عذاب .

سألتها رسمية :

- ولماذا تعذبين نفسك ؟
- وماذا أفعل يا أم زهير . في حقيبتي قائمة طلبات طولها نصف متر ، وكذلك الهام . أنت تعرفين أهلنا . اذا سمعوا بانك تنوين السفر . جاؤوك بطلباتهم وخلفهم الاصدقاء والجيران والمعارف .
- على ذكر السوق . كان الياس هنا قبل قليل .

سألتها بلقيس متحيرة :

- الياس ! ومن هو الياس ؟
- الياس ! ، البائع الجوال . جاء ومعه حقيبته المليئة . انظري اشتريت منه هذه الهدايا .

- واسمه الياس !
- هو نفسه ، الذى يأتي الى الفندق في كل سنة ، حتى بضاعته لا تتغير . نفس ربطات العنق الرخيصة وقمصان النايلون التي يدعي بأنها حريرية .
- لا بد أنه جديد . أنا أعرف بائعا اسمه خضر .

قالت نادرة وهي تضرب الطاولة براحة يدها :

- بالضبط . البائع الجوال الذى يأتي في كل صيف . اسمه خضر يا أمي وليس الياس !

انتفضت رسمية مدافعة عن ذاكرتها :

- أنا متأكدة بأن اسمه الياس . ناديت عليه باسمه فأجابني ولم يقل بان اسمه خضر . أنا لم أخرف بعد .

قالت بلقيس :

- حاشاك من الخرف .

تابعن في صمت الرجل الغريب الذى مر بجانبهن على عجب ودخل الفندق. وبعد وقت قصير خرج الرجل الى الشرفة ، وجال ببصره بين الجالسين وكانه يريد احصاءهم ثم ركب سيارته الكبيرة وعاد بها باتجاه المدينة .

الشهر الثالث

لم تحس ماري بوجود تميمة حتى وقفت أمام مكتبها . سألتها في قلق :

- ماري ، ما بك ؟

قامت ماري ودارت حول مكتبها قبل أن تجيبها :

- أبدا ، لاشيء .
- ليس هذا ما تقوله عيناك .
- لا تشغلي بالك . عيناي مجهدتان .
- هل أنت متأكدة ؟ على أية حال اذا أردت التحدث الى أحد...

ثم استدارت وخرجت من المكتب . عند باب الفندق تنحى لها خليل ليسمح لها بالمرور فشكرته بابتسامة خلبت لبه . التقت عيناهما لحظة طويلة ، وشاهد شفتيها الممتلئتين تنفرجان عن صفين من الاسنان المنضودة ، ولمح طرف لسانها الاحمر القاني . شهق لانه لاحظ ولاول مرة الشبه الكبير بينها وبين فتاة قروية تسكن ماضيه غير البعيد .

تذكرها خليل بعد منتصف الليل ، بعد أن استغرق ابنه في النوم وأخرج زجاجة العرق من مخبئها في حقيبته ووضعها على الطاولة بالقرب من دورق ماء وقدح فارغ وكيس مليء بحمص نيء . استحضر في مخيلته صورة وجهها الوضيء عندما فتح لها الباب ، وكيف اقشعر بدنه . وقال في سره : وكأنني تمغنطت . صب في الكأس مقدار اصبع من العرق وأكمل : اقتربت مني حتى شعرت بأنفاسها على وجهي ، دافئة مثل حقل قمح ، ومعطرة وكأنهامرشوشة بماء الورد .. لو فتحت فمي وملأت رئتي منه ..ولو كنت معيديا ، من أهل الجنوب ، لوصفتها بأنها مثل الصورة ، عجيبة ، لعبة ، شعرها ابريسم ، وعيناها شذرتان من نبع صاف . ولو كنت شاعرا لتغزلت فيها بقصيدة ، أو حتى ديوان غزل - ليس مثل هذا النزيل الكئيب الذى يدعي بأنه شاعر ويقضي وقته فاغرا فمه

مبحلقا في الفضاء . شرب جرعة كبيرة وتجشأ ثم خاطب نديمه الخفي في سره : ما الذى أتى بها الى هذا الفندق ؟ بمقدساتي ان هذا النزل الوضيع ما هو الا المحطة الاخيرة في رحلة تأجيل الموت التي يسمونها الحياة . تصورا! انهم لا يسمحون بالمشروبات الكحولية فيه . من سمع بفندق لا يقدم مشروبات، وكأننا جئنا الى هنا للتنسك .

في السرير أغمض عينيه ، وحاول استرجاع وجه تميمه في مخيلته ، لكن ملامحها كانت تختلط بملامح زوجته التي شوهها المرض في تركيبة كابوسية مرعبة . ثم تذكر القروية التي لم يعرف اسمها ، وتساءل عما حدث لها . هل أحست بالتدبير المبيت لها باحساس القروى الفطرى ، وعادت الى أهلها وقريتها عذراء لم يمسسها نائب الضابط سليم وفرج . لم أستطع نسيانها ، واذا نسيتها أياما ، يبرز لي اسم أخيها في أحد تقارير السجن فأتذكرها . ساعدته مرارا ، ربما للتكفير عما فعلته ـ أو بالاحرى عما لم أفعله .

جاء به الحراس في يوم كنت فيه ضابط الخفر ، واتهموه بمحاولة حرق السجن . طالعني بعينيه الغائرتين في وجهه المصفر من سوء التغذية وفقر الدم ، وقال في صوت خافت بأن أحد زملائه نصحه بالتخلص من القراد الذى يلتصق بجسمه باحراقه ، وكشف عن ساقيه المبقعتين ببثور متقرحة ومفتوحة مثل براكين مصغرة . كان المسجونون يسمونها " السراكيل " . في الليل تنسل من بين فطور الجدران وتدب على أجسادهم ، وتلتصق بها وتظل تمص دماءهم حتى الصباح . أمرت له بمعالجة في مستوصف السجن .

في اليوم الذى جاءت لزيارة أخيها كنت أيضا ضابط الخفر المناوب . دخل علي العريف فرج ليستأذنني في السماح لها بمقابلتي . ملت الى رفض طلبها لان مواعيد الزيارة قد انتهت ، ولانني أردت الاختلاء بنفسي بعد قراءة رسالة من عمي يخبرني فيها باشتداد المرض على زوجتي وبأن الاطباء لا يتوقعون لها أن تعيش طويلا ، مستدركا بأن الاعمار بيد الله . غيرت رأيي

بعد أن قال لي فرج وهو يغمز بعينه بأنها جميلة وتستحق خمس دقائق من وقتي . لم أحول عيني عن شجرة النارنج عندما دخلت ، متأملا جذ عها وأغصانها العارية والتي لم تحييها كميات المخصبات العضوية التي أمر مدير السجن بطرحها في أصلها .

جلست على الارض بالقرب من الباب وبجانبها صبي صغير . خمنت بأنه ابنها أو أخوها . رفعت رأسها فتأكد لي بأن فرج لم يبالغ . وقبل أن تطأطىء رأسها في استحياء شاهدت عينيها الواسعتين ، وحاجبيها المخطوطين باتقان لا يقدر عليه أحد سوى الطبيعة ، وانفها الدقيق ، وخديها السمراوين المصبوغين بحمرة طبيعية ، لا تحاكيها الاصباغ الاصطناعية على وجوه نساء المدن . وتوقفت نظراتي عند شفتيها الممتلئتين قبل أن أسألها في غيظ محروم :

- ماذا تريدين ؟

فقالت وهي تعيد خصلة شعر نزقة تحت عصابتها السوداء اللامعة بأنها أخت علوان ، السجين المظلوم الى آخر المقدمات التي كنت أسمعها من ذوى السجناء . لم أتذكر سجينا بهذا الاسم ، ولم أشاهد سجينا فيه من ملامحها . قلت لها بأن أوقات الزيارة قد انتهت وان عليها أن تعود بعد اسبوع ،فعادت الى التوسل . لا أتذكر ما قلته لها بالضبط ، حدثتها عن النظام فلم تفهم . قالت شيئا من هذا القبيل : " أنت ومروءتك " أو " كما تأمر " فقلت لها بأنها لو عادت في الغد فسيسمح لها بمقابلة أخيها .

ظلت صورة وجهها ماثلة في ذهني طيلة النهار ، ولم تدعني أنام القيلولة . كنا نقضي كل أمسية تقريبا في نادى الموظفين . نتعشى ونشرب ونتسامر حتى منتصف الليل ، وعندما تنضب القصص نسخر من مدير النادى الذى يجلس عند باب المطبخ يعد القناني والصحون الفارغة ، ويتفاخر بأنه لولا النوادى التي يديرها هو أمثاله لفرغت مدن البلاد من الشباب . وسمعت معلم

جرىء يقول له بعد نصف قنينة عرق بأن الانجليز وأزلامهم بعد أن فشلوا في اخضاع شعبنا بحثوا عن طريقة ذكية لافساد المجتمع فقاموا بفتح النوادى ليبيعوا فيها أم الكبائر ، كما فعلوا من قبل بقبائل الهنود الحمر في أمريكا .

قبل أن يأخذ النادل طلبي حضر فرج وجلس أمامي دون دعوة ، ثم انضم الينا نائب الضابط سليم الذى يعمل في السجن معنا . بعد قنينة العرق الثانية طلب سليم عشاءا . ثم تذكر فرج القروية التي جاءت في الصباح ، وقال لنائب الضابط بأن صاحبنا - يعنيني - طلب منها العودة غدا ، وأضاف في خبث بأنه قضى طيلة بعض الظهر والعصر يبحث عن تفسير لذلك . استمعت في اشمئزاز لسليم وهو يروى لنا كيف استدرج زوجه مسجون الى بيت قوادة معروفة في المدينة ، ووصف في اسهاب تمنعها في البدء واستسلامها في النهاية ،وأظنه علق على ذلك بالقول المأثور الذى يستشهد به كل المغتصبين : " يتمنعن وهن راغبات " . وسأله فرج ممازحا : " يجوز أن أخينا يفضل الاكل لوحده مثل بعض الناس " . ضحك نائب الضابط مدركا مغزى ملاحظة فرج ذات الحدين وناوله سيخ لحم وثمرة طماطم ، وقال كلاما سخيفا مثل : " أنا لا أحب الاكل لوحدى . ماذا تقول يا أبي فؤاد ؟ " لم أجبه ، فالتفت الى فرج وسأله ان كانت متزوجة . فأجابه : " وما أدراني وهل أنا موظف في النفوس حتى أعرف ذلك". وضحكا . ثم أخبره فرج بخطته لاستدراجها الى بيته .سيقول لها بأن زوجته قد نذرت نذرا لاحد الاولياء ، وهي تريد الوفاء بنذرها وانه سيسمح لها بمقابلة أخيها بعد أن تصحبه الى بيته لتستلم حصة من النذر من يد زوجته شخصيا ووافقه سليم قائلا بأن هؤلاء القرويين مثل الغنم تستطيع أن تقودهم الى أى مكان بحزمة من هذه الاعشاب الخضراء وأشار الى صحن الكراث والفجل أمامه .

في اليوم التالي حضرت الى المكتب قبل بدء الدوام . تركت الباب مفتوحا لأرى الفتاة عندما تمر في طريقها للحصول على رخصة زيارة .

أحضر لي الفراش شايا . أعطيته نقودا ليشترى لي علبة سجائر ، وكنت قد توقفت عن التدخين منذ أكثر من ستة أشهر . أشعلت سيجارة وراء سيجارة حتى نفذت العلبة . قبل الظهر غادرت مكتبي . مررت أمام مكتب فرج فلم أجده . عدت الى مكتبي ، وحتى الظهر كانت الاوراق قد تكدست على طاولة مكتبي ، ولم أكترث لنظرات الفراش المتعجبة . بحثت عنها في فناء السجن وخارج البوابة . تفحصت في لهفة وجوه النسوة اللواتي تعلقن بحديد البوابة مثل طيور سوداء علقت في شباك صياد ، فلم أر وجهها بين الوجوه المستعطفة ولم أسمع صوتها بين أصواتهن المتوسلة . اشتريت علبة سجائر من الحانوت وعدت الى مكتبي .

اقترب الدوام من نهايته ، وفرج وسليم مازالا غائبين عن مكتبيهما . صورت لي الظنون ما يمكن أن يحدث – أو قد حدث بالفعل . تتبع القروية فرج الى داخل البيت ، تحمل صرتها السوداء في حرص لانها تحتوى على هدايا أمها لاخيها ، ثوب جديد وبيض مسلوق وخبز باللحم . يدخل سليم مبتسما . ترفع القروية رأسها فتشاهد جسمه يسد فتحة الباب ، وينعكس ظله داخل الغرفة فتزداد عتمتها . أما فرج فيجلس في الصالة ، يعبث بجلد عنقه كعادته حينما يكون متوترا . وقبل أن تسأله عن زوجة فرج الورعة ، التي تنذر النذور ستصعق ويشل لسانها وهي تراه يغلق الباب وراءه ويبدأ بفك أزرار بنطاله الخاكي ، وفي عينيه نظرات حيوان مفترس. ستحاول الهرب فيمسكا بها ، وسيقابلا توسلاتها بالسخرية . لمت نفسي لاني لم أدعها تقابل أخيها بالأمس ، وعرفت بخطتهما ولم أفعل شيئا .

لم أسألهما عما حدث في ذلك اليوم . فضلت الشك على اليقين لأني خفت أن يوءكدا لي أسوأ توقعاتي ، وصرت أتفادى مجالسهما في النادى ، ولم أعد أصحبهما في زياراتهما الشهرية الى مضارب الغجر .

تعلمت من والدتي أن كفتي الميزان الكوني ، الذى لا تضاهيه دقة موازين الصاغة ، لا بد أن تتعادلا ، فكل سيئة يتبعها عقاب ، وكل حسنة تستحق

ثوابا ، كما أن كل ضحكة هي نذير حزن آت - كانت تتطير من الضحك ، فتغطي فمها وتتعيذ من الشياطين - ولأن متعهد الافراح هو نفسه مقاول المآتم يوزع فناجين القهوة المرة بيد ، وبيده الاخرى يدير أقداح المشروبات الحلوة ، وحتى تعود كفتا الميزان الى التعادل لا بد أن يعاقب على مافعله أو ما لم يفعله في سبيل انقاذها .

أفاق بعد ساعات من نوم مضطرب مليء بالكوابيس فقام مترنحا الى فراشه .

× × ×

دخلت بديعة قاعة الطعام بعد أن خلت من النزلاء ، وتبعها بركات الى المائدة الطويلة القريبة من النافذة . اشتكى من الجوع فقالت له في تأثر :

- تقبرني ، سأنادى على أمين ليعجل بالغداء .

ولكنه ضمها بين يديه القويتين ، وانحنى على رأسها ليقبله ثم انضمت اليهما سلمى . و دخلت مارى وعلى وجهها سحابة من الهموم ، رصدتها أمها بحواس الامومة المرهفة .

بعد أن اكتمل عقد الاربعة حول المائدة قررت مارى أن الوقت قد حان لاخبارهم :

- زارنا ضيف ثقيل .

سألها بركات وهو يقطع ثمرة طماطم :

- البلدية أم السياحة أم الضرائب ؟

- لا ، ليس واحدا من هوءلاء ، على أية حال ، هو الاخر جاء يطلب نقودا ، ثلاثة آلاف ليرة .

صفر بركات مندهشا ، وتجمدت يده التي كان يحمل بها مرشة الملح فوق شرائح الطماطم . سألتها بديعة :

- ثلاثة آلاف ليرة ، لم ؟

- أتاوة .

سألتها سلمى :

- ولماذا ندفع ؟

- قال لي بأنه مبلغ زهيد مقابل الحماية التي سيقدمها لنا .

سألها بركات هازئا :

- وهل هناك خطر يتهددنا ؟

عقدت يديها على صدرها وأجابته :

- سألته نفس السوءال فأجابني بأن المجرمين كثيرون ، والحياة أصبحت خطرة ، وان كل واحد يحتاج لحماية ، وهو وجماعته مستعدون لتأمين ذلك مقابل ثلاثة آلاف ليرة في السنة .

قالت بديعة في ذهول :

- لا أصدق !

أمسك بركات بيدها وخاطبها قائلا :

- لا يا أمي . صدقي ، أنتم تعيشون في قوقعة .

احتوت بديعة رأسها بيديها ، وقالت شاكية :

- يا ربي ، من أين جاءتنا هذه المصيبة ؟

قال بركات بفم ملآن :

- من الانتخابات . ثم سأل ماری : هل طردتيه ؟

أجابته بحدة :

- بالطبع لا . لم أطرده . وهل من المعقول أن أقرر هذا الأمر لوحدی - فتحت كفيها في تضرع وسألتهم - ماذا نعمل ؟

قال بركات :

- اذا أردتم رأيي . اطردوه . هذا بلطجي .

قالت ماري في نفاذ صبر :

- أطرده ! تفضل اطرده بنفسك بشرط أن تتحمل النتائج .

قال بركات متبجحا وهو يغرس شوكته في شريحة طماطم ويرفعها نحو فمه :

- لا تكترثي . سأتفاهم معه .

- يا ابني . دعنا نفهم الموضوع أولا . هوءلاء أناس خطرون .

قالت ماري :

- الموضوع واضح يا أمي . الرجل يريد أتاوة ، واذا لم ندفع فلن يدعنا وشأننا .

- لماذا ؟ ماذا فعلنا له ؟

- لم نفعل شيئا . انه يريد نقودا سهلة . واذا لم ندفع سيوءذينا بطريقة ما . يقطع الكهرباء أو الماء عن الفندق أو ربما يفتعل حريقا .

غطت بديعة فمها بكفها في ذعر ورددت : " ياربي ، معقول ! " .

قالت ماري :

- لست متأكدة ، ما أدراني ، فأنا لم أتعامل مع أمثاله من قبل - سألتها بعد توقف قصير - هل كان أبي يدفع أتاوة ؟

- أبدا ، لقد رفض دفع رشوة لموظف في البلدية فأغلقوا مدخل الفندق الرئيسي واضطررنا لاستعمال باب الشرفة .

قال بركات :

- وما أدراك ، ربما كان يدفع ولم يخبرك .

- أبوك ، الله يعطيه الصحة ، لم يكن يخفي عني أسرارا .

قال بركات ، مبتسما في خبث :

- الازواج لايخبرون زوجاتهم بكل شيء .

نفذ صبر ماري . خاطبت أخيها في حدة :

- اذا لم يكن لديك رأيا تساعدنا به ، فأكرمنا بسكوتك .

رد عليها بلهجة العارف ببواطن الامور :

- أعطوه كفا يطلب ذراعا .

التفتت ماري الى اختها وسألتها :

- وأنت ، مارأيك ؟

أجابتها :

- حتى لو قبلنا مرغمين ، فمن أين سنأتي بالثلاثة آلاف ؟

قال بركات :

- لماذا لا نسوّفه ؟

قالت سلمى :

- الى متى ؟ حتى ينتهي الموسم !

قال بركات :

- أنتم لا تعجبكم آرائي ، لكن اذا قررتم الرضوخ لهذا البلطجي فعلى الاقل حاولوا تخفيض المبلغ .

قالت ماري بعد تفكير قصير :

- فكرة جيدة .

زفر بركات في ارتياح :

- أخيرا اعترفوا بذلك .

- كلامك معقول - على غير عادة . سأحاول . سأعرض عليه ألف ليرة ، ولو أني أشك بأنه سيقبلها . سأحاوره وأناقشه ثم أزيد المبلغ الى ألف وخمسمائة وسأقول له بأننا لا نستطيع دفع ليرة واحدة فوقه .

- واذا لم يقبل وأصر على الثلاثة ؟

- سأقول له : تفضل أنت وجماعتك واستلموا الفندق ،واذا استطعتم أن تربحوا ثلاثة آلاف أو حتى عشرة آلاف فهي لكم ، حلال عليكم .

قاطعتها بديعة :

- هذا الدكتور جبور قد وصل ، مارأيكم لو نسأله ؟

أداروا رؤوسهم ليشاهدوا الطبيب يدخل قاعة الطعام حاملا حقيبته .
همست ماري :

- لا تفاتحوه . الموضوع لا يخصه .

قالت بديعة :

- ولم لا ؟ الدكتور ليس غريبا ، انسان متعلم ويعرف الناس - قامت لترحب بالطبيب ، خاطبته بعد أن جلس :

- جئت في الوقت المناسب لتتغدى معنا .

- اعفوني هذه المرة . كلما أزوركم تطعموني افطارا أو غداء. صدقوني بأني لا أتعمد الحضور في أوقات الوجبات .

ضحكوا من دعابته . قالت له بديعة :

- يا ليتك تزورنا كل يوم .

قال الطبيب :

- أرجو ألا أكون قد قطعت حديثكم .

قالت بديعة :

- أنت واحد منا ولا نخفي عنك همومنا ومشاكلنا - ووجهت كلامها الى ماري ، احكي له يا ماري .

قالت ماري في استسلام :

- الموضوع لا يستحق اهتمامك يا دكتور.. باختصار . زارنا شخص وعرض علينا حمايته - لنا وللفندق - مقابل ثلاثة آلاف ليرة :

رفع الطبيب حاجبيه مندهشا . قال :

- هذا مبلغ كبير . ماذا ستفعلون ؟

قالت ماري :

- لا نعرف . كنا نناقش الموضوع عندما شرفت . فكرنا بأن نطلب منه مهلة لتدبير المبلغ أو نحاول تخفيضه .

قال بركات متفاخرا :

- أنا اقترحت فكرة التخفيض .

كافأه الطبيب بابتسامة . أحس بنظراتهم معلقة على وجهه ، تنتظر أن يفتح فمه ليقترح عليهم حلا سحريا يجعل البلطجي يختفي في سحابة دخان مثلما يفعل المشعوذون ، سيخيب آمالهم . سألهم :

- هل حدد موعدا للدفع ؟

أجابته ماري :

- لا . لم يحدد . قال بأنه سيعود بعد أيام .

- لدينا مهلة قصيرة للتفكير . استعمل صيغة الجمع متعمدا ليفهموا بأنه سيواجه المشكلة معهم . أضاف : سأسأل بعض الناس المهمين أنتم لستم أول من تفرض عليهم أتاوة بالتأكيد.قد نتوصل الى شخص يوءثر عليه ، أو على الأقل ينصحنا .

- أخشى أن يغضب علينا .

- لا تقلقي . سأقول لهم بأن الامر يخصني أنا شخصيا .

قالت بديعة في حماس مخاطبة ماري :

- ألم أقل لك بأننا سنجد الحل لدى الدكتور .

هزت ماري رأسها بالموافقة . وقال الطبيب في خجل :

- أنا لم أفعل شيئا بعد .

- ما دمت الى جانبنا ، فسأنام مطمئنة .

توقفوا عن الكلام عند اقتراب النادل ، وتناولوا غذاءهم دون أن يعودوا الى موضوع البلطجي ثانية .

تناول خليل افطاره ، وأسمع ابنه النصائح المعتادة والمبطنة بالتهديد والوعيد ، ثم نزل الى بيروت .سار من محطة سيارات الاجرة الى مقهى صغير اعتاد على الجلوس فيه . اختار طاولة منزوية ، وطلب شايا ، واشترى من بائع جرائد جوال جريدة واستأجر مجلة . فرغ من قراءة الاخبار السياسية والمحلية وصفحة الحوادث ، وطلب شايا آخر . طالعه عنوان صغير على الصفحة ما قبل الاخيرة : أين تذهب هذا المساء ؟ ابتسم ساخرا وأجاب عليه في سره : هذا سؤال سهل . سأكون في الفندق ، من الشرفة الى قاعة الطعام وعودة الى الشرفة لهضم العشاء ثم السرير والأرق . لن أشاهد فيلما سينمائيا أو عرضا في ملهى ، وانما سأشاهد على الاغلب كابوسا ، وحتى كوابيسي معادة ، أبطالها لا يتغيرون ، جثة الاب ذو الوجه المسلوخ ، والام وطاستها الممدودة ، والزوجة المسلولة التي تستعمل منديلي قبل أن تطويه وتضعه في جيب سترتي ، والقروية المذبوحة تردد والدماء تشخط من رقبتها : الان أصبحت نظيفة . غسلوا عني العار . قلت لهم بأنك لست مذنبا ، ولكنهم أصروا على تحويلك الى تمثال ملحي مثلما فعلوا بفرج وسليم . أستيقظ فزعا ، وأتذكر قصة التمثالين الملحيين .

كنت مسافرا الى بغداد في اجازة قصيرة . بعد انتظار طويل في محطة السيارات ركبت أول سيارة متجهة شمالا ، مصمما على المبيت في بغداد ولو قضيت النهار كله على الطريق . عبرنا نهر الفرات على جسر عائم يسع سيارة واحدة . اهتز وطرقعت مفاصله أثناء مرورنا عليه . وفي منتصف الجسر أشار السائق الى موضع قريب في النهر قائلا بأنه لو كان ماء النهر رائقا لاستطعتم مشاهدة الشاحنة التي هوت فيه قبل أيام بكامل حمولتها من التمور المكبوسة ، على الضفة الاخرى كانت بساتين النخل كثيفة مثل غابة استوائية ، تتخللها جداول كثيرة يسبح فيها أطفال سمر ورؤوس جواميس ضخمة .

في منتصف الطريق تقريبا بين النجف الاشرف والديوانية أوقف السائق سيارته على جانب الطريق العام لتبريد محركها . نزل الركاب فنزلت معهم ،

رأيتهم يتجهون مسرعين نحو قبة زرقاء مترِبة لا تبعد كثيرا عن الطريق . صاح السائق خلفهم : لا تتأخروا أكثر من عشر دقائق . ستظلم الدنيا بعد قليل وأنا أعشي - ابتسم لي وأضاف - ادعوا لنا . سألته وهو يفتح غطاء مبرد المحرك عن صاحب القبة . طلب مني الابتعاد لئلا يصيبني رذاذ الماء المغلي وقال : أنت غريب عن هذه المنطقة لأن الجميع هنا يعرفون هذا القبر ، ويحلفون بالمدفون فيه ، ويسوقون له النذور . سألته : لماذا لم يدفنه أهله في مقبرة النجف القريبة . فأجابني في مرارة : الفقر الذى يرافق الانسان الى قبره ، وأضاف متفلسفا : دنيا عجيبة . عاش هذا الرجل المبارك فقيرا ، لا يأكل غير خبز الشعير ولا يدخل اللحم كوخه الا في الاعياد ، والان وبعد وفاته ترقد رفاته في قبة من حجر ، تذبح على عتبتها يوميا خراف سمينة . هز رأسه في تعجب من أمور هذه الدنيا ، واستأنف : مادام لدينا بعض الوقت قبل عودة الزوار فسأحكي لك كيف تحول صاحب هذا المقام من حياة الفقر الى غنى الموت . في أحد الايام وقبل عدة سنين وقفت امرأة وابنتها الشابة تنتظران سيارة أجرة تقلهما الى المدينة . مرت حافلة صغيرة أشارت لها الام فتوقفت . كانت الحافلة خالية من الركاب . لاحظ السائق جمال البنت فأعجبته ،ووسوست له نفسه الدنيئة بارتكاب الفحشاء معها ، وهو انسان معروف بسفالته ، ولا يتورع عن شرب المسكر في أيام رمضان وعاشوراء . غمز لمساعده الذى كان مثله - لا ذمة ولا ضمير ... الخلاصة ، أوقف الحافلة قرب هذا المكان ، ونزل منها بعد أن أخبرهما بأنه يريد قراءة الفاتحة على قبر " السيد " المدفون هنا . صدقته الام ، وتبعته هي وابنتها طلبا للثواب ، ولم تشعرا الا والرجلان قد أحاطا بهما . أمسك السائق بالبنت وسحبها الى دخل الاعشاب الطويلة هناك ، بينما راحت الام المدهوشة تصرخ وتستغيث وتخمش وجهها . ركضت باتجاه الطريق لعل سيارة مارة تنجدهما ، ولكن المساعد استبقها ، وضربها على رأسها . أفاقت المرأة بعد قليل على ولولة ابنتها لتشاهد السائق وهو يهم باغتصابها ، فرفعت كفيها الى السماء تدعو الله ، بحق السيد المدفون هنا ، أن ينقذ شرف ابنتها التي لم يمسسها رجل من

قبل . تقول المرأة : بين اغماضة جفن وفتحه تجمد الرجلان وأفلتت ابنتها . ذهبا وأخبرا الناس ، فجاؤوا الى هنا ليجدوا الرجلين وقد مسخا الى تمثالين ملحيين . حملوهما وألقوهما في مستنقع قريب . أخافتني القصة ، فلجأت الى داخل السيارة ، وصارت موضوعا لكوابيسي ، أرى فيها نفسي راكضا على الطريق ، هاربا من الشعاع الذى قد يخرج من عنان السماء ، مثل رمح محارب اسطورى، ويمتد ويطول حتى يخترق قمة رأسي ، ويحولني في ثوان الى تمثال . أصرخ: دخيلكم ، سامحوني .

انتبه على النادل وهو يرفع من أمامه فنجان الشاى . نادى على بائع الجرائد ليعيد له مجلته ثم قام وانصرف .

× × ×

حل اليوم الذى انتظرته رسمية بفارغ الصبر . لم تدع أحدا التقت به من نزلاء الفندق الا وأخبرته بأن ابنها الوحيد زهير وزوجته سيصلا اليوم . لم تحتمل الانتظار في الفندق فاكترت سيارة أجرة قبل موعد الطائرة بساعات ،ونزلت الى بيروت مع ابنتيها .

كانت تميمة وابنتها تجلسان في الشرفة حين توقفت سيارة أجرة أمام بوابة الفندق ،ونزلت منها رسمية ورجل في الثلاثينات من عمره ، ما أن استقرت رجلاه على الرصيف حتى احتضنته رسمية وتعلقت بذراعه . تملص منها برفق ، وفتح باب السيارة الخلفي لتنزل منها نادرة وعفاف وامرأة شقراء ، نحيلة ، تغطي عينيها بنظارة سوداء ، وترتدى فستانا أبيض مورد . تفحصتها تميمة بعينين ناقدتين وتساءلت في سرها : ماذا رأى فيها ؟ خلعت نظارتها ، ولكن وهج شمس آب أرغمها على اعادتها الى مكانها . فرضت رسمية سيطرتها على كنتها منذ أول لحظة . أجبرت الاجنبية على التخلي عن حمل حقيبة ، وقادتها من ذراعها عبر مدخل الفندق الى طاولة تميمة ، التي قامت لاستقبالهما ، ثم تقدم زوجها

وتصافحا . حدق فيها بجرأة فلم يهتز لها جفن .

شعرت تميمة بنظرات ابنتها عليها ، وكأنما تحاول قراءة أفكارها ، نهرتها قائلة :

- لماذا لا تقرئين كتابا أو مجلة بدلا من الجلوس هكذا والبحلقة في الناس ؟

زفرت في انزعاج وفكرت : لو لم تكن صغيرة لظننت بأن أباها كلفها بالتجسس علي .

خرجت مارى واقترب من طاولتها . سألتها تميمة :

- مارأيك بكنة رسمية ؟

ابتسمت مارى وقالت :

- زوجك يطلبك على الهاتف .

كان اتصالا قصيرا ، وباردا - من جهتها على الاقل . بعد المقدمات سألها : متى تعودون ؟ اشتقت لكم . أجابته بأن هواء الجبل مفيد لولديهما . عادت الى طاولتها في الشرفة وهي تحاور نفسها اللوامة في تصميم بأنها هي الاخرى بحاجة الى هواء الجبل ، أو أى هواء لا تشتم فيه أنفاس زوجها المطرة بالنعناع الذى يداوى به عسر هضم مزمن .

× × ×

- تفضل .

أشارت مارى الى كرسي الخيزران القريب من مكتبها ، دفعه خليل الزعيم الى الوراء حتى لامس الحائط قبل أن يجلس عليه . شاهدته مذعورة يدس يده في جيب سترته . ولم تستبعد أن يخرج منها سلاحا : مسدس أو سكين . أخرج مسبحة ولفها حول أصابعه ، قال :

- أفضل انهاء الموضوع دون تأخير . أنا مستعجل ولا بد أنك مشغولة أيضا .

التقطت قلمها من على الطاولة . وقالت :

- أنا آسفة . لم أستطع تدبير المبلغ . أنت تعرف أن الفندق صغير وأجرة الليلة الواحدة لا تزيد على عشر ليرات ، وبالكاد تسد المصروفات .

لم يتوقف عن مداعبة حبات مسبحته ، ولم تتغير تعابير وجهه ، وخمنت بأن الرجل متعود على مثل هذه المواقف وسماع أعذار ضحاياه لذا لم يفاجأ ولم يغضب . كانت تمسك بالقلم بشدة أوجعت أصابعها . تذكرت الغريق والقشة فوضعته على الطاولة .

- أنت وعدتني في الزيارة السابقة ، وحضرت اليوم في الموعد وحسب الاتفاق .

- صدقني المبلغ فوق طاقتنا . ماذا أفعل لتصدقني ! رد عليها بضحكة جوفاء أخافتها . أكمل :

- أهذا معقول . فندق مثل فندقكم ، موقع ممتاز ، طابقان وصالات واسعة ... أنا أعرف كل شيء . أعرف مثلا أن غرفكم كلها مشغولة ، صحيح أم لا . انتظر حتى هزت رأسها بالموافقة ثم أكمل : وتقولين بأنكم لا تستغنون عن هذا المبلغ الضئيل؟

أرادت أن تصرخ فيه بأنه ليس ضئيلا ، ولكنها قالت :

- لو توفر لدينا المبلغ ...

قاطعها في حدة :

- قلت لك بأنني مجرد رسول . هل أقول للناس الذين أرسلوني

بأنكم لا تريدون حمايتهم ؟

ردت في لهفة :

- لا ، امهلنا اسبوعا واحدا فقط . سنحصل على المبلغ بطريقة ما ، سنطلب من النزلاء تسديد حساباتهم ...نقترض .

كظمت ماري غيظها . كانت مضطرة للتوسل الى هذا المجرم الذى يبتزهم في وضح النهار ، ويوءنبها ثم يهددها لانها لم تهيء له الاتاوة . رفع رأسه معبرا عن نفاذ صبره فانكشف عنقه ، غليظا أسود مثل جذع شجرة يغطيه الشعر الزاحف من صدره حتى ذقنه الحليق . طفرت الى ذهنها صورة حيوان يذبح . يلمع نصل السكين عند نزولها على النحر المكشوف لتخترق الجلد وتقطع العروق وتحز الرقبة فينبثق منها شلال دم . أغمضت عينيها لحظة لتطرد الفكرة من ذهنها .
قال :

- أسبوع واحد فقط ؟
- أسبوع واحد لا أكثر .

نهض من كرسيه قائلا .

- سأعود بعد أسبوع ، واذا لم يكن المبلغ جاهزا فلن أكون مسوءولا عن النتائج .

قالت :

- سنجهزه .

بعد أن خرج من المكتب ، تناولت القلم ورمته نحو الحائط .

أمعنت رسمية النظر في وجه ابنها . صورة من أبيه ، شعره الغزير الذى يغزو صدغيه ، حاجباه الكثان المعقودان ، تدويرة عينية ، عظام خده الناتئة شفتاه الرقيقتان الممتلئتان في أنوثة ، ونقرة ذقنه . تتمنى لو أن التشابه بينهما لم يقتصر على الملامح ، لو أنه ورث شيئا من شخصية أبيه القوية ، ولكن

مهما كانت نواقصه وعيوبه يبقى ابنها الوحيد ، الذى يحمل اسم العائلة . غطت يده المستقرة على الطاولة بيدها وسألته في حماس :

- حدثني عن نفسك ، عن حياتك ، عملك ؟ هل أنت مرتاح في الغربة ؟

- مرتاح وسعيد .

تعجبت من نفسها لانها لم تفرح لسماع ذلك . أضاف وكأنه أحس ما يدور في نفسها :

- لولا اني مشتاق لكم على الدوام لكانت سعادتي كاملة .

ربتت على يده في رضاء . قالت في انكسار :

- أنت تعرف قلب الام ، لا يهجع ولا ينام . أريد الاطمئنان عليك، ولكن كيف وأنت بعيد عنا ؟

- اذا كنتم قلقين علي الى هذه الدرجة فلماذا لا تأتون لتقيموا معنا ؟

- أنا أسكن في بلاد الغربة بعيدا عن بيتي ، وعفاف ونادرة !

- البداية صعبة ، ثم تتعودين ، أنا جربت هذا .

- ولو عادت الامور كما كانت عليه ...

- هذه مجرد أمنية ، لا شيء يعود كما كان - أضاف بعد توقف قصير - تذكرين المزهرية الثمينة التي كنت تخافين أن نكسرها ، وتحذرينا من الاقتراب منها ، ولا تدعين أحدا ينظفها. أتذكر بأنه في أحد الايام سمعت صوتا مدويا ، ودعوت الا تكون المزهرية ، وان كانت هي الا تكون عفاف أو نادرة أو احدى الخادمات قد تسببت في ذلك . ركضت نحو حجرة الاستقبال. وجدناك واقفة في وسطها تنظرين مذهولة الى قطع الخزف الملونة التي تناثرت في كل مكان . صرخت بنا بأن نبتعد

لئلا ندوس على قطعة . راقبناك من الباب وأنت تجمعين الحطام، جثيت لتنوشي القطع التي اختفت تحت الأرائك . كنت تقولين بأنك ستعيدينها كما كانت ، وبانك سمعت عن خزاف ماهر مختص بذلك . احتفظت بالقطع سنوات طويلة ... ثم لا أدرى ما فعلت بها .

قالت في تحسر :

- رميتها ... ذاكرتك قوية !

- هل تعرفين بأني شعرت بارتياح في ذلك اليوم لانك أنت كسرتيها .

سألته :

- هل كنتم تخافون مني الى هذا الحد ؟

ابتسم في غموض وقال :

- كنا أطفالا .

- كان أبوكم يحذرني من افسادكم بالدلال الزائد ... وهو لا يعمل بنصيحته . ربيناكم أحسن تربية ، وأرسلناكم الى أحسن المدارس .

- كنت أكره المدارس الداخلية .

- كنا مضطرين لذلك قبل انتقالنا الى بغداد .

- أربع سنوات في السكن الداخلي لكلية بغداد وقبلها سنتان في الابتدائية .

أرادت أن تغير الموضوع فسألته :

- أين زوجتك ؟ لم أرها منذ الصباح .

- نزلت الى المدينة .

- لم تخبرني كيف تعرفت عليها .

ضحك عاليا وقال :

- وصلنا الى بيت القصيد . كاثرين من عائلة انجليزية متوسطة الحال . أبوها ليس دوقا ولا لوردا ولا يمتلك غير شقة متواضعة في شرق لندن . ولكنها زوجة طيبة . لا تختلف عن نادرة وعفاف ... أنا أعرف بأنك كنت تأملين بتزويجي من احدى قريباتنا . لو كان الزواج من قريبة أو من عائلة عريقة مضمونا لكانت نادرة الان تعيش مع زوجها .

- وهل الزواج من أجنبية مضمونا ؟

لم يجبها لأنه انشغل بالنظر الى تميمة التي خرجت الى الشرفة برفقة منير والشاعر الذى لم يتذكر اسمه .

× × ×

توزعوا على الكراسي القليلة وعلى فراش الام ، بينما كان الأب مستلقيا على فراشه غير مكترث بأحاديثهم وضوضائهم . انصتوا لمارى التي كانت تحدثهم عن زيارة المتعهد الذى يشترون منه احتياجات الفندق التموينية بالجملة . جاء ليخبرها بأنه مضطر لرفع أسعاره . هنأته على سيارته الجديدة فأقسم لها بأنه اشتراها بالتقسيط . فكر بركات بأن أحدا منهم لم يذكر البلطجي الذي سيعود بعد أيام ليطالبهم بالالاف الثلاثة ، فماذا سيدفعون له ؟ وكيف سيتخلصون من هذه الورطة ؟ بالامس حضر جبور وأخبرهم بأنه سأله بعض الناس ، لم يسميهم ، لم يسمعوا من قبل بخليل الزعيم - ألأنه بلطجي مبتدىء وقال بأن عدة بلطجيين يولدون في كل يوم تطلع فيه الشمس . ستقع المصيبة على رؤوسنا وهن يثرثرن . تحدثنا مارى عن بلقيس التي اقتحمت مكتبها قبل يومين محملة بملاءات السرير ، مثل مومياء فرعونية ضخمة انحل قماطها ،

وصرخت بأنها ترفض النوم على ملاءات غير نظيفة ، وانها لم تنم في حياتها الا على ملاءات نظيفة لم يستعملها أحد من قبلها. زفر في سره : هذه أفعال النسوان . حين تبرز أمامهن مشكلة ، فاما أن يقفن مشدوهات ، مذهولات ، يفركن أيديهن في عجز وحيرة أو يهربن الى الثرثرة الفارغة ومتاجر الملابس وأدوات الزينة . تسلمن زمام الامور بعد عجز والدى . سيطرن على حياتنا وعلى الفندق . دفعن عطا الله الى الهروب الى المنجرة ، أما أنا فسأظل بالنسبة لهن ، الابن الصغير المدلل ، والطالب الفاشل في دراسته ، لا أحد يسأله عن رأيه ، واذا تبرع به سخرن منه . حان الوقت لوضع نهاية لعهد النساء في دولة عائلته ، سيبرهن لهن بأنه رجل البيت - مادام عطا الله قد تنازل عن حقه في ذلك . سيدعهن يثرثرن وسيذهب الى مكان آخر ليفكر في حل لمشكلة البلطجي .

قام من الكرسي وخرج من غرفة والديه دون أن يرد على نظراتهن المتسائلة . عرج على غرفته ليأخذ محفظته وعلبة سجائر أخفاها عنهن بين طيات ملابسه : عندما يخلصهن من البلطجي ، ويريهن أفعال الرجال سيدخن علنا . أشعل سيجارة عند أعلى الدرج ونزل في تأن . قبل أن يصل الى الشارع الرئيسي أشعل سيجارة ثانية . كان رصيفا الشارع مزدحمين بالمصطافين الذين خرجوا لاستقبال نسمات العصر الباردة ، والتفرج على الدكاكين التي فتحت أبوابها وأشعلت مصابيحها ووقف أصحابها عند مداخلها يدعون المارة للدخول . توقف أمام دكان أسلحة صيد ، تعرض في واجهته بندقية صيد ضخمة ، وعلب رصاص تصور نفسه يتناولها بيديه . تطبق يساره على ماسورتها الباردة ويستقر أخمصها في راحة يمينه ، ثم يرفعها ليسندها الى كتفه ، يصوبها ، يضع شفرة التصويب على خط مستقيم مع الهدف ، اصبعه متشنجة تكاد تلامس الزناد ، تنتظر الاشارة من دماغه ، ثم يضغط على الزناد فتنطلق الرصاصة نحو القلب المتحجر ليسقط خليل الزعيم مضرجا بدمائه . أرخص وأضمن من دفع الاتاوة التي يطلبها ، وسيستحق الشكر على ذلك لأنه خلص المجتمع من مجرم .. لو كان لدى سلاح فسأقف

في وجهه دون خوف ، والافضل أن يكون مسدسا أستطيع حمله معي الى أى مكان واخفاؤه داخل ملابسي . وسأستقبله بنفسي ، وسأطلب من مارى أن تدخل غرفتها ولا تغادرها مهما حدث . سأقول له بأننا لن ندفع - حتى لو كان لدينا المبلغ وسيفهم بأننا لسنا بقرات حلوب أو خراف دون راع ، ولكن حتى الراعي يحتاج الى عصا يخوف الذئاب بها ، وأنا راع أعزل . تذكر الياس ، زميله في المدرسة ومسدسه الذى يحمله معه في حقيبته المدرسية . دعاه مرة للتفرج عليه في دورة المياه خلسة ، وكأنه صورة اباحية وتباهى بأنه اكتسب مهارة في الرماية من اصطياد القطط السائبة في قريته شبه المهجورة في الشتاء . سأجد صعوبة في اقناعه بالتخلي عن مسدسه ... الا اذا اغريته بمبلغ مناسب . ساعطيه كل مالدي من نقود مقابل الاحتفاظ بالمسدس لمدة شهر . بعد أن حزم رأيه استوقف سيارة أجرة مارة وصعد اليها .

انتظر بركات حتى خلت الشرفة والبهو من النزلاء وانصرف الطباخ ثم تسلل بحذر الى قاعة الطعام ومنها نزل على السلم الموءدى الى المطبخ وخرج من باب الفندق الخلفي . عندما ابتعد عن الفندق مسافة كافية أخرج المسدس . قلبه في يده . كان أصغر وأخف وزنا مما توقع ، ولكن الياس ، قاتل القطط السائبة ، أكد له وهو يعد نقوده بأنه مميت مثل أى مسدس آخر .

دوى صوت الطلقة ورددته شعاب الوادى . سمعه خليل فمد يده في حركة عفوية تحت مخدته حيث اعتاد أن يضع مسدسه ، بجانب حرز وضعته زوجته ليجلب لها النوم . ثم تذكر بأنه ليس في بيته وأعزل .

كانت الشمس قد انحدرت خلف الجبال ساحبة وراءها فضلة نور النهار. وحولت ظلال المساء الزاحفة الهضبة الجرداء وصخورها الشوهاء الى معبد وثني، تتوزع فيه جذاذات أصنام عليها لطخات داكنة من دماء قرابين متخثرة . وتصور صلاح الذى استبد المنظر بحواسه الانطلاق الفجائي لساحرة عجوز من بين الظلال .

تأففت رسمية من عتمة الشرفة ، فوافقتها عفاف وهمست نادرة بأن مارى اشتكت لها من ارتفاع المصاريف وانهم سيطلبون من ادارة السياحة زيادة أجرة الاقامة في الفندق . بعد قليل خرج زهير مرتديا بدلة كحلية وربطة عنق مقلمة . استقبلته أمه بابتسامة عريضة ، وأدارت نظرها يمينا ويسارا على الجالسين في الشرفة وكأنها تريد الاطمئنان الى أنهم يشاركونها الاعجاب بابنها الانيق ، الممتلىء صحة وشبابا . دعته للجلوس بجانبها ولكنه اعتذر بأنه نازل الى بيروت ، ولوحده . انحنى على زوجته وهمس بأذنها فلم ترد عليه.

سار على الرصيف المظلم بخطوات سريعة ، وكأنه يستعجل الابتعاد عن الفندق ونزلائه ، أزعجت الفكرة أمه ، التي حدجت زوجته بنظرة استياء ، لأنها، كما اقتنعت سبب بؤس ولدها الوحيد ، الذى لم يعد يصبر على الجلوس بينهم أكثر من دقائق ، يفر بعدها الى بيروت ، متعذرا بأعذار واهية ، تاركا أمه وأخواته متعطشات لرؤيته وسماع صوته .

قبل أن يختفي زهير وراء منعطف الشارع قامت زوجته ودخلت الفندق .

قالت رسمية في حرقة :

- ألم أقل لكما ؟ الاجنبيات دبقات . اذا تعرفت احداهن على رجل مناسب - ومن لا يعجبها أخاكما زهير ... تلتصق به ، وتظل وراءه ... وقد تورطه حتى يتزوجها .

قالت نادرة في تهكم :

- لو كنت دبقة مثلهن ...

قالت عفاف :

- أنا متأكدة بأنه مجرد خلاف عابر بين زوجين سرعان ماسيزول .

قالت رسمية مستهزأة :

- خلاف عابر ! لا يطيق الجلوس معنا ، وهي قامت وتركتنا. نرسلهم للدراسة والحصول على الشهادات الكبيرة فيعودون وعلى ذراع كل واحد منهم شقراء ، لا أصل ولا فصل .

أضافت مع نفسها : ما العمل ياربي ؟ لا أريد الوقوف جانبا ، متفرجة ، والحسرة تعصر قلبي ، يجب أن أتدخل بقلبي وعقلي - ويدى أن تطلب الامر. سأدعو له في قلبي دعاء أم حار تتفتح له أبواب السماء ، وسأبحث في يوميات عمرى عن نصيحة تنقذه من عذابه الصامت . واذا دعت الضرورة فان يدى طويلة ، سأمدها دون تردد ، وأهدم وأعيد البناء في تصميم وعناد ، يشهد عليه المقاول الذى جئت به ليبني ملحق فوق المرآب لسكنى السائق وزوجته في العام الماضي.استغرق البناء أكثر من شهر ، وبعد اكتماله جلست في الحديقة وتأملته طويلا فكرهته . قلت لنادرة بأني سأشعر بالاختناق كلما وقع بصرى عليه . وقبل أن ينقضي النهار كنت قد توصلت الى قرار ، وفي الصباح التالي استدعيت المقاول وطلبت منه هدم الملحق . حملق في مذهولا ، وأمام اصراري جلب عماله وباشروا بالهدم . طمرت الانقاض أحواض الزهور القريبة من المرآب ، وغطت أشجار البرتقال والتوت بطبقة سميكة من تراب ناعم . ومع أن المنظر كان محزنا وكئيبا مثل آثار زلزال فقد شعرت بارتياح عميق وكأن هما كبيرا قد انزاح من على صدرى .

كانت ترتعش من شدة الانفعال ، اشتكت من برودة الجو في الشرفةوقالت بأنها ستنتظر حلول موعد العشاء في البهو . رافقتها عفاف الى داخل الفندق، وتبعتهما نادرة بعد قليل .

× × ×

كانت السيارات المنحدرة على الطريق تمر ببطء أمام الفندق ، تبرز من نوافذها وجوه أطفال ضاحكة ، تمتعوا بقضاء نهار الاحد مع أهاليهم بين أحضان الطبيعة الجبلية . لوح أحدهم لنزلاء الفندق فرد عليه منير بايماءة رأس وصلاح بابتسامة .

لبى صادق دعوة منير للانضمام اليهما . تحدثوا عن موضوعات عامة ، ثم خرجت تميمة وجلست معهم . قال صلاح بأنه قرأ موءخرا ديوان شعر لشاعر مشهور وأعجب به كثيرا . أيدته تميمة قائلة بأنها قرأته من الغلاف الى الغلاف مرات عديدة وتحفظ أبياتا منه ، أما منير فقد وصف شعره بأنه كئيب تنقبض منه النفس لكثرة ما يذكر فيه الفراق والمرض والموت ، فانبرى صلاح مدافعا عن الشاعر المريض بحماس تابع مخلص . لم يشارك صادق في الحديث لانه لم يقرأ بيتا واحدا لهذا الشاعر مع أنه سمع به من قبل وشاهده صدفة في أحد الفنادق فراعه هزاله الشديد . تململ صادق وسألهم ان كان الشعر يستحق كل هذا الحرمان والعذاب بحيث لا يجد الشاعر ثمن علاج قد تتوقف عليه حياته . رمقه صلاح بنظرة استنكار وكأنه نطق كفرا ، وابتسم منير ابتسامة غامضة ،وقالت تميمة :

— وهل يلام الشاعر أو أى شخص فقير أم المجتمع الذى يعيش فيه قلة مترفون وغالبية لا تمتلك ثمن دواء !

استاء صادق من ملاحظتها ولكنه لم يرد عليها . وبعد وقت قصير استأذن وقام . سمعهم يضحكون قبل أن يعبر عتبة باب الشرفة ، فتحول استياءه الى غضب مكتوم لانه ظن بأنهم يسخرون منه وراء ظهره .

× × ×

قبل أيام قليلة من عودة البلطجي المتوقعة ليقبض أتاوته قررت مارى اللجوء الى أقرب النزيلات اليها : رسمية وابنتيها وتميمة . بعد أن

حكت لهن عن زيارة البلطجي سألتهن :

- ماذا أفعل ؟ سيعود الرجل غدا أو بعد غد .

ضربت رسمية الطاولة بكفها فاهتزت الاكواب الموضوعة عليها ، وقالت في حنق :

- معقول ! وفي هذا الزمن .

قالت ماري :

- والتدبير . ماذا أفعل ؟

قالت رسمية وهي تعبر عن رأيها بيدها :

- اطرديه ولا تترددى .

- واذا نفذ تهديده .

- لن يجروء ... هوءلاء جبناء ،وتهديداتهم فارغة ، مجرد تهويل؟ مثل كلب ينبح ، اذا أعطيته ظهرك فقد ينهشك أما اذا رميته بحجر فسيهرب .

قالت نعيمة :

- برأيي الموضوع يحتاج الى تفكير أكثر .

قالت نادرة في حماس :

- أنا مع تميمة . هذا الرجل خطر ، ويجب عدم الاستهانة بتهديداته .

قالت رسمية في لهجة حاسمة :

- اشتكيه للشرطة . ما فائدتهم اذا لم يوفروا الحماية للناس من هوءلاء المجرمين !

قالت تميمة :

- الشرطة تريد أدلة . وحتى اذا اقتنعوا فماذا سيفعلون ؟ سيطلبونه للحضور أمامهم ، وسينكر بالطبع ثم يطلقون سراحه

وسيكون غاضبا جدا من مارى وأهلها . وبدلا من سبب واحد سيكون لديه سببان للنقمة عليهم .

أدارت رسمية جسمها نصف استدارة معبرة عن اعتراضها على رأى تميمة ، وقالت :

- افعلوا ما بدا لكم .... أنا قلت ما عندى ....

تفحصت مارى وجوههن وسألتهن :

- والحل ؟

قالت تميمة :

- الأسلم هو أن تدفعي ... لتتجنبوا شره - لهذا الموسم على الأقل .

سألتها مارى في قنوط :

- وهل سيعود في السنة القادمة أيضا ؟

- أنا لست خبيرة برجال العصابات . ولكن هل تظنون بأنكم اذا طردتموه فسيذهب دون رجعة . ستسقط هيبته . واذا لم ينفذ تهديده فلن يدفع له أحد أتاوة بعد اليوم .

قالت رسمية وهي تسند مرفقيها على الطاولة :

- أنا لا أقول نتحداه . دعونا نبحث عن حل وسط . ليس فيه تحدى ولا دفع نقود ... قولي له لم نتمكن من تدبير المبلغ .

- قلت له ذلك في زيارته السابقة .

خاطبتها رسمية في عتاب :

- لم تستشيرينا من قبل .

قالت مارى معتذرة :

- لم أرد ازعاجكن ... كان كلامه واضحا . جهزى نقودك والا ....

قالت رسمية محتدة :

- والا ماذا ! سيقتلك أم يقتل بديعة . لا تفقدى السيطرة على أعصابك ياماري . أنا أعرفك قوية لا توءثر فيك أمور تافهة مثل هذه . لا تدعي هذا المجرم يلعب بأعصابك . سوفيه حتى نجد مخرجا .

قالت ماري في لهجة باكية :

- لا أقدر . كنت سأطلب منه ذلك في المرة الماضية ، لكني خفت منه .

قالت رسمية في رقة :

- يا ابنتي . دع أحد غيرك يراه .

سألتها نادرة :

- أتنوين أنت مقابلته ؟

- لا ، لا أنا ولا ماري ولا أنت . هذه أمور تتطلب رجالا . هذا الرجل - ما اسمه ؟ ... الزعيم لن يهاب امرأة مهما كانت قوية .

- اذن ، من سيقابله ؟ بركات .

قالت رسمية في استهجان :

- بركات ! بركات ! وهل يعقل أن نطلب من شاب لا يعرف الدنيا بعد مواجهة هذا المجرم . لا..نريده أن يدرك بأن وراءك رجال أشداء لا يهابونه . ثم أضافت في ثقة : أنا عندى الرجل المطلوب .

سألتها ماري في لهفة :

- من هو ؟

- خليل .
- خليل ؟

سألت نادرة في تهكم :

- خليل آخر ؟

قالت مارى :

- تقصدين خليل الذى ينزل في الفندق .

سألت نادرة :

- وما أدراك بأنه يصلح لهذه المهمة ؟

قالت رسمية :

- لا يوجد من هو أفضل منه - وأضافت في صوت خافت : كان يعمل موظفا في الداخلية في العهد السابق .

قالت نادرة :

- أشك بأنه سيخيف البلطجي .
- أنت لا يعجبك أحد يا ابنتي .

سألت تميمة :

- وهل سيقبل بالمهمة ؟

أجابتها رسمية :

- اتركوه لي . أنا سأقنعه . لن يرفض طلبي . سيقابل الزعيم ويتفاهم معه ، واذا لم يخلصنا منه فسيقنعه بتخفيض المبلغ .

قالت مارى :

- ياليت .

خاطبتها رسمية :

- قومي لتدقي ناقوسك أم تنوين تجويعنا اليوم .

ضحكن ولكن دون مرح .

× × ×

انقضى الاسبوع ولم يحضر الزعيم . وفي صباح كل يوم كان خليل يجلس في الشرفة بانتظاره ، بعد أن وعد رسمية بأن يفعل كل ما بوسعه لمساعدتهم ، ومع أنه لم يكن واثقا من قدرته على اقناع الزعيم - فهو ليس سياسيا ولا يحسن التفاوض كما قال لها - فقد وافق بعد أن ترجته رسمية في لهجة اقتربت كثيرا من التوسل قائلة بأنهم يعتمدون عليه ، ولم يجدوا من هو أقدر منه على القيام بهذه المهمة ، فوافق في حينها ثم ندم فيما بعد لتسرعه في القبول . حاول اقناع نفسه بأن الفوائد التي سيجنيها من وراء ذلك تستحق الجهد والمخاطرة . سيعترف له الجميع بالشهامة والنخوة ، وقد يدفع ذلك أصحاب الفندق الى التعبير عن امتنانهم بأكثر من كلمات شكر فلا يطالبوه بأجرة الاقامة ، كما أن رسمية لن ترفض مساعدته في ايجاد وظيفة مناسبة ، وأصدقاؤها ومعارفها هنا لا يقلون عددا وثراء من أصدقاء توفيق .

حضر في اليوم الثامن . كان خليل جالسا لوحده في الشرفة ، وأمامه فنجان قهوة وجريدة لم يفرغ من قراءتها بعد عندما نزل من سيارته ودخل . ومع أنه لم يشاهده من قبل فقد عرفه من عدوانية حركاته ومشيته ، ومن ملامحه المتجهمة ونظراته المتعجرفة ، وأيضا من التوتر الذى تلوى في معدته. تمنى في لحظتها لو لم يعد رسمية بمقابلته . تأكد من قوة فراسته عندما خرجت مارى بعد قليل يتبعها الرجل . قال لنفسه وهو ينهض من كرسيه : فات أوان التراجع وحان وقت التوكل . بعد اجراء تعارف مقتضب بينهما انسحبت مارى الى داخل الفندق ، ثم جلب النادل قهوة الضيف غير المرغوب فيه .

تذوق الزعيم قهوته ، وأشعل سيجارة بولاعته المذهبة ، وأخرج مسبحة لفها حول أصابعه ثم رفع عينيه الى خليل منتظرا . أحس خليل بارتباك ورعب مروض نمور مبتدىء يدخل قفص النمور لوحده ولأول مرة ، وبينما وقفت رسمية والآخرون في الجانب الاخر من القضبان يتفرجون عليه ويصفقون له ويشجعونه على وضع رأسه بين شدقي النمر ، اقتحم هو العرين أعزلا وليس بيده سوطا ولا عصا

ولا حتى كرسي ، ثم تحل لحظة المواجهة المرتقبة ، فاما أن يروضه كما تتمنى رسمية وجماعتها أو يتغدى به ثم يتعشى بهم . وتساءل خليل في سره ان كانت رسمية والاخرون يراقبونهما من وراء الستائر المسدلة للنوافذ المطلة على الشرفة ليشاهدوا ان كان النمر سيفترس المروض أم أن المروض سيدهشهم بمعجزة لم تتكرر منذ عهد الرومان . ارفع كفي بالدعاء فيتحول النمر الى قط كبير يموء ويتمسح برجلي .

فتح الزعيم فمه كاشفا عن أسنان آدمية ملونة بالنيكوتين ، وسأله ان كان قد أحضر النقود ، فأجابه في صوت جاهد ليخرج ثابتا وقويا بأنه يود التفاهم معه حول هذا الموضوع . هز الزعيم رأسه وبسط يديه على الطاولة فتذكر خليل أسد بابل والمرأة المستلقية تحته التي تمثل ـ كما قرأ في كتاب التاريخ المدرسي ـ الامم التي أخضعها البابليون . تبلبل لسانه واضطرب وهو يردد عليه أقوال رسمية عن ضيق يد أصحاب الفندق ، وانتهى الى الاعراب عن ثقته بكرم وشهامة الزعيم الذى سيقبل بالتنازل عن المبلغ أو تخفيضه على الاقل . انصت الزعيم في هدوء . وبعد أن شرب قهوته وأطفأ سيجارته ،وأعاد مسبحته الى جيبه قام من كرسيه ودخل الفندق . خرج بعد ثوان ورفع اصبعه نحو خليل مهددا ، وقال :

- قل لجماعتك بأني سأعود غدا واذا لم يكن المبلغ جاهزا فستندمون .

ثم استدار وانصرف .

ظل خليل المذهول جالسا دون حراك لعدة دقائق . لم يخرج أحد الى الشرفة فقام وغادر الفندق ، فهو يحتاج لوقت مع نفسه يفكر بما حدث قبل مواجهة رسمية والاخرين . نظر الى ساعته عند المدخل وتعجب لأن اللقاء الذى انتظره واستعد له اسبوعا كاملا لم يستغرق عشر دقائق كاملة .

× × ×

كان الوقت متأخرا بالنسبة لنزلاء الفندق الذين انصرفوا الى غرفهم استعدادا للنوم ، ولم يتخلف منهم أحد في البهو سوى رسمية التي أصرت على انتظار عودة خليل . انتبهت على صوت الباب وشاهدته يدخل متلفتا وكأنه لص متسلل وليس نزيلا . فاجأه وجودها في البهو فألقى عليها تحية مقتضبة ومضى باتجاه غرفته مسرعا . لحقته الى باب غرفته لتسأله عما تم في لقائه مع الزعيم فقال لها في جفاء :

- ألا يمكنك الانتظار حتى الصباح ! أنا متعب وبحاجة الى راحة...

ثم دخل غرفته وأوصد بابها ، انشغل فكرها بتفسير سلوك خليل الغريب وتذكرت ما قالته لها ماري بأنها تركتهما في الشرفة وانسحبت الى غرفتها - ولم تشاهد أي منهما منذ ذلك الحين ، وظنت بأنهما خرجا سوية لتناول الغداء خارج الفندق كما كان ينوي خليل . دقت الجرس ليحضر النادل ويوصد باب الفندق ثم صعدت الدرج الى غرفتها .

× × ×

في صباح اليوم التالي خرجت ماري من مكتبها لتستوقف رسمية عند أسفل الدرج وتسألها عن خليل . أجابتها رسمية :

- رأيته . قال بأنه سيخبرنا بما جرى بينهما اليوم. كان متعبا . انتظري وسنعرف .

لم يخرج خليل من غرفته في ذلك اليوم سوى مرة واحدة لتناول طعام الغداء في مطعم صغير بالمدينة القريبة ثم عاد الى غرفته واستلقى في سريره . كان جسمه متوترا وساخنا حتى ظن بأنه محموم . لقن ابنه بأن يجيب على كل من يسأله عنه بأن أباه متوعك ولا يرغب بمقابلة أحد ، وأوصاه بأن يبلغه عن أي غريب يزور الفندق . ولم يشعر بارتياح لدى سماعه من ابنه بأن أحدا لم يسأله عنه وبأنه لم يشاهد غريبا في الفندق ، لانه لم يستبعد أن

يكون الزعيم قد حضر وقابلهم دون أن يراه ابنه ، كما أن النهار لم ينقضي بعد ، واذا لم يأت اليوم فسيأتي غدا أو بعد غد ، فهل سيبقى حبيسا في غرفته حتى رحيلهما ، ولكن بأي وجه سيخرج اليهم : رسمية وماري والاخرين وماذا سيقول لهم ؟ لقد اعتمدوا عليه ، كان رجلهم الذي وثقوا به كما وصفته رسمية فماذا فعل ؟ خيب آمالهم فيه وأجج غضب البلطجي عليهم ، ولايزال يستعيد في مخيلته النظرة التي ألقاها عليه قبل انصرافه ، نظرة نمر الى جيفة ، اصطادها غيره ونهشتها الضباع والكواسر فعافتها نفسه .

قال لنفسه بأنه لم يكن واهما وانه مريض بالفعل.كان لايزال في فراشه، وأنصت في حيرة الى لغط صادر من مكان قريب فاستنتج بأن لديه زوار ، وتوعد ابنه في سره بعقاب شديد لانه سمح لهم بالدخول ليشهدوا هوانه ويشمتوا به. حاول تحريك رأسه ليراهم لكن رقبته كانت متيبسة ، وفكر في ذعر بأنه قد يكون مشلولا ، ولكن متى حدث ذلك وكيف ؟ لقد سمع أو قرأ أن الانسان اذا أصابته مصيبة قد يشيب شعره أو يتوقف قلبه أو يصاب بجلطة ويموت من الرعب ، ثم أطل وجه رسمية من على يمينه . عضت شفتها في اشفاق وقالت له بأنها ستحضر له دواء شافيا ورفعت كأسا مملوءا الى نصفه بماء أو سائل شفاف . اختفى وجهها ، ثم سمعها تخاطبه : اطمئن . أنت رجلنا السبع . لولاك لظلت وجوهنا مكسورة ، ورؤوسنا في الارض . أنت بيضت وجوهنا . شعر بارتياح لأنه عرف من كلامها أن البلطجي لم يحضر بعد لذا يعتقدون بأني خلصتهم منه ، ثم أطل عليه وجهان : على يمينه وجه رسمية المشفق ، وعلى يساره وجه زوجته أو امرأة تشبه زوجته الى حد بعيد ، نفس الخدين الموردين والعينين البراقتين والشعر الفاحم قبل أن يشوهها المرض . ناولت رسمية الكأس الى زوجته أو شبيهتها التي رفعته الى فمها وشربت منه ، وتصور امتزاج لعابها بالماء عند حافة الكأس ، ثم مدت يدها بالكأس نحو فمه . حاول أن يصرخ بأعلى صوته بأنها مسلولة واذا لم تصدقوني فانظروا داخل الكأس . أبعدوها عني ،

دخيلكم ، ماتت زوجتي قبل سنوات ، وهذا المخلوق ليس هي وانما شيطان في صورتها . ألم تحدثكم عجائزكم عن شياطين تقمصت أجساد بشر .

استيقظ فزعا ليطالعه وجه ابنه وقد اعتصره القلق . قال له معتذرا بأنه سمعه يهمهم بأصوات غريبة فايقظه . ضمه الى صدره وأغمض عينيه في ارتياح .

× × ×

قرأت مارى الخبر المقتضب على الصفحة الرابعة ، بين أخبار حوادث السطو والاغتصاب وتزوير العملة . أعادت قراءته مرتين ، ودققت النظر في الصورة الباهتة ، في ملامح وجهه القاسية ونظراته المتحجرة ، تناولت صحيفة أخرى ، وقلبت صفحاتها على عجل حتى عثرت على الخبر . نفس التفاصيل لكن دون صورة . خلاصة الخبر أن صيادا عثر على الجثة بعد ظهر السبت - أى قبل يومين ، وتبين من تقرير الطبيب الشرعي أن الرجل مات مقتولا بست رصاصات أطلقت عليه من مكان قريب واخترقت رأسه وقلبه ومعدته ، أما اسم القتيل المعروف بسجله الاجرامي الحافل فهو خليل حداد المشهور بالزعيم .

طوت الجريدتين باعتناء وأعادتهما الى مكانهما فوق طاولة مكتبها ، توفي الزعيم ، مقتولا بست رصاصات فلماذا لا تحس بارتياح لخلاصهم منه . لقد تمنت موته ، بأى طريقة ممكنة ، حتى انها تخيلته مذبوحا على هذا الكرسي يصبغ بدمه الجدران . تقول مصادر الشرطة بأن الجاني لايزال مجهولا . جاء الزعيم لزيارتهم في يوم السبت - أى نفس اليوم الذى قتل فيه ، ودخل الى مكتبها ،ثم رافقها الى خليل ، ولم تره بعد ذلك . اختفى الخليلان : الزعيم والنزيل، وعاد النزيل لوحده في وقت متأخر . وكان متوترا وعصبيا ومنهكا كما وصفته رسمية . دارت ظنون في رأسها مثل عاصفة هوجاء . هل قتله ؟ لقد طلبت منه رسمية أن يحاول اقناعه بتخفيض المبلغ أو تقسيطه . ولم تعده

بأى شيء مقابل ذلك ، فلماذا وكيف ؟ تتصور ما قد حدث : طلب النزيل خليل من الزعيم مهلة لتدبير المبلغ فرفض ، تلاسنا ، فثارت حفيظة الزعيم . سحب مسدسه واشتبكا في صراع انتهى بمقتل الزعيم بست رصاصات . أو لم تكن رصاصة واحدة أو اثنتان كافية ؟

قامت من مكانها ، وخطت الى النافذة المطلة على الشارع . ألصقت جبينها بالزجاج الدافىء وشعرت باهتزازه الخفيف . تنبأت باقتراب شاحنة ثقيلة ستمر من أمام الفندق . كانت قبل سنوات كثيرة تلاعب اختها : تلصقان وجهيهما بالزجاج وتتباريان في التنبوء بنوع السيارات المارة . كانت اللعب مسلية والايام سويعات خفيفة على القلب .

دخل أمين ثم خرج حاملا الصحف . سيضعها على طاولة في البهو . وبعد قليل سيعرف الجميع بالخبر ، وأولهم رسمية التي قالت لها عفاف بأنها تقرأ الصحف كل يوم بانتظارالخبر الذى سيعيد لهم ما فقدوه من أراض وبساتين ومكانة اجتماعية .

بعد أقل من ربع ساعة ظهرت رسمية على باب مكتبها حاملة احدى الصحف . وضعتها مفتوحة على الطاولة ، ورفعت نظارة القراءة من على عينيها وجلست ، سألتها :

- هل قرأت الخبر ؟

هزت مارى رأسها وقالت :

- تمنيت موته ، بأية طريقة . وعندما قرأت خبر مقتله خجلت من نفسي وأنّبني ضميرى .

- وما ذنبك أنت ؟ هو الذى جاء ليهددكم ويبتز أموالكم . كان يلعب بالنار فأحرقته .

- وخليل ... النزيل ؟

- ما به ؟ ... ثم أدركت مغزى سؤالها فأضافت في انفعال : هل تشكين بأنه هو ... الجاني ؟ ! مستحيل ! ولماذا يفعل ذلك ؟

- ربما اضطره الزعيم لذلك .

- دفاعا عن النفس . صحيح كانت تصرفاته غير طبيعية . تصورت بأنه فشل في المهمة لذا كان يتهرب مني حتى لا يضطر لمصارحتي بذلك ، ولم يخطر ببالي بأنه ... لا تنسي بأن رجلا مثل الزعيم له أعداء كثيرون ، وفي بلداننا ما أكثر المقتولين لأسباب سخيفة ... اقرئي هذه الصفحة تجدى أن غالبية حوادث العنف والقتل تبدأ بخلاف حول أمر تافه ، أولوية المرور في الشارع، موقف سيارة ... ولا ينفض الشجار الا وأحدهم ممددا على قارعة الطريق وفي صدره سكين مغروسة أو رصاصة .

قالت ماري في صوت مفعم بالقلق :

- أخشى أن نتورط اذا عرفت الشرطة بأنه زارنا والتقى بخليل .

- وما دخلنا نحن !

- كيف ! ألم نطلب منه مقابلة الزعيم ... واذا قال لهم بأنه قتله من أجلنا .

- أستبعد ذلك ، وحتى لو اعترف بأننا حرضناه على قتل الزعيم فمن سيصدق بأن امرأة عجوز مثلي - قدم في الدنيا وأخرى في القبر حرضته على القتل . ومن أجل ماذا ؟ نقود ! أم سيقول لهم بأنه صاحب نخوة وانه قتله ليحمينا .

- أخاف من الاحتمالات والمفاجآت .

- اطمئني ، مادامت الشرطة لا تعرف بوجود صلة بين الزعيم والفندق وخليل - ونحن لسنا متأكدون من أن خليل هو الفاعل .

- وكيف سأتصرف مع خليل ؟

قالت وهي تقوم منصرفة :

- تظاهري أمام الجميع بأنك لم تقرئي الخبر .

× × ×

بعد مضي عشرة أيام على لقائه القصير مع الزعيم لم يكن خليل قد عرف بمقتله . قضى أسبوعا يخرج كل يوم بعد الافطار ولا يعود الى الفندق الا بعد وقت العشاء ... تناول وجبات رخيصة في مطاعم شعبية ،وتنقل بين مقاهي عديدة ، وتمشى ساعات طويلة في شوارع بيروت . أقنع نفسه قبل يومين بأن مغال في حذره فلو كان الزعيم ينوى الحضور فسيأتي في النهار وان احتمال مجيئه أثناء وقت العشاء ضئيل جدا لذا عاد لتناول عشاءه في مطعم الفندق .

تابعت نادرة دخول خليل الى قاعة الطعام وجلوسه عند مائدة منزوية . خاطبت أمها :

- ما الذى يجرى في هذا الفندق ؟ أنت ومارى تخفيان عنا أسرارا تجلسان وحدكما وتتهامسان ... وهذا خليل اختفى اسبوعا ثم عاد لتناول وجباته في الفندق . لن أرتاح حتى أعرف كل شيء .

قالت رسمية :

- أسرار ! أنت متوهمة .

- أدفع مائة ليرة لاعرف ماذا تم بينه وبين البلطجي .

- تفاهما وانتهى الامر .

- معقول ! بلطجي يهدد ويتوعد ويطالب بأتاوة ضخمة ثم ترسلون له هذا ... الرعديد . انظرى اليه ! يجلس في زاوية متلفتا وكأنه حرامي دخل مركز شرطة خطأ . صحيح اذا قالوا آخر زمان . الجبان يصبح بطلا والمكارى يعتبر فارسا .

قالت رسمية مستهزئة :

- أى فارس ! من الموءكد بأنه لم يركب حمارا في حياته .

- انه فارس حتى لو لم يكن لديه حمار أو حصان . هذا ليس - والتفت الى أختها متسائلة ... ثم أكملت : بطل القصة الذى يحارب الطاحونات ... دون كيشوت . هذا بطل حقيقي . واجه البلطجي الشرير وتغلب عليه . ألا يستحق جائزة ؟

قالت رسمية :

- جائزة !

أجابتها نادرة :

- بالطبع . كل بطل يحصل على جائزة . نيشان يعلق على صدره أو على تابوته . وفي قصص ألف ليلة وليلة يتزوج البطل من ابنة الملك ويرث الملك من بعده .

قالت رسمية :

- هذه خرافات .

- صحيح ، ولكننا نتعلم منها الدروس والعبر ... مثلا الملك الذى يزوج ابنته للبطل يريد أن يضمن مستقبل ابنته ويأمن طموح البطل على أساس قاعدة : زواج أفضل من انقلاب .

قالت رسمية بعد أن بلعت لقمتها :

- مادمت تعرفين خفايا نفوس الابطال ، فأى واحدة منكن سيطلبها البطل - أقصد خليل .

- لا أنا ولا أنت . لو لم تكن تميمة متزوجة لكانت هي المرشحة الاولى .

- ولم لا ! اذا أمر فسنحاول اقناع زوجها بتطليقها ، واذا استغنى زهير عن زوجته نزف له اثنتين بدلا من واحدة ...وكل هذا لانه قابل الزعيم فأصبح في نظرك عنترة زمانه !...ما أدراك فقد يكون الاصلي بلطجيا هو الاخر .

أشارت رسمية بيدها الى مارى التي كانت تقف عند مدخل القاعة فخطت نحوهن . خاطبتها رسمية :

- تعالي واسمعي ! تقول نادرة بأن علينا أن نزوج خليل من واحدة منكن لانه طرد الزعيم .

وجمت مارى لدى سماعها اسم البلطجي . تكلفت ابتسامة وقالت :

- نعطيه نادرة .

- لا يا أختي . أنا أخذت حصتي من الرجال كاملة وفوقها زيادة ، ولست طماعة .

قالت عفاف في صوت خافت :

- أو بلقيس ؟

قالت نادرة :

- عنتر لن يرضى بها . لو كان يريد جارية عبدة مثلة لما خاطر بحياته ليصبح بطل بني ذبيان .

× × ×

اقترحت الهام الفكرة في حماس ، ورفضتها بلقيس قائلة بأنها مشعوذة ولا تصدق ما يرويه الناس عن قدرتها على التنبوء بالغيب وارجاع المسروقات وغير ذلك من الخوارق . وافقت نادرة على زيارة المنجمة،وقالت عفاف بأنها سترافقهما للفرجة فقط .

نزلن الى بيروت . كان اسم المنجمة كافيا بالنسبة لسائق الاجرة الذى طفق يحدثهن عن العجائب التي سمعها عن قدراتها ، والمصادر كلها موثوقة ، كما أكد لهن : أمه وعماته وخالاته . سألته نادرة متهكمة : وهل تشفي العميان والبرص ؟ فأجابها في لهجة جادة بأنه لا يعرف .

صعدن الدرج الى الطابق الثاني حيث توجد شقتها . اكتشفن عند الباب بأنهن محظوظات لان اليوم مخصص للنساء فقط . تقدمت نادرة ودخلت وتبعتها الهام وعفاف . تفحصتهن عيون فضولية لنساء من مختلف الاعمار اكتظت بهن الغرفة فلم يبق فيها مقعد فارغ واحد . أومأت اليهن سيدة تضع على رأسها منديل أبيض وأفسحت بجانبها مكانا صغيرا لا يتسع لطفل . تنازلت عفاف والهام عنه لنادرة وأصرتا فحشرت نادرة جسمها فيه وهي تهدد بأنها لن تنتظر طويلا .

كانت الأحاديث تدور بين النساء المنتظرات همسا وعيونهن شاخصة الى باب مغلق . خرجت منه بعد قليل امرأة وسط توقفت نظراتها على الوجوه الثلاثة الجديدة ، وهزت رأسها في اعتراف صامت بحضورهن . اقتربت من احدى النسوة وكلمتها فقامت وتبعتها الى داخل الباب المغلق . بعد حوالي ربع ساعة خرجت المرأة ، وقدرت نادرةمن عدد المنتظرات بأنه لن يأتي دورهن قبل ساعات من الانتظار الممل في هذه الغرفة الكئيبة المثقل هواوءها بعرق أجساد متوترة ودخان سجائر رخيصة . قررت اللجوء الى طريقة قديمة ومجربة . انتظرت خروج مساعدة المنجمة وهرعت الى جانبها . دست في يدها ورقة نقود وهمست في أذنها بأنها مريضة ولا تقوى على الانتظار ، ثم عادت الى مكانها وعلى وجهها ابتسامة ظفر .

بعد قليل اقتربت منهن المساعدة ودعتهن الى اللحاق بها . اكتشفن أن الباب الموصد يفضي الى غرفة انتظار أخرى ، أصغر من الاولى ، فيها مائدة طعام مستطيلة وكراسي. قالت لهن بأن المنجمة ستستقبل كل واحدة منهن على حدة ثم اقتادت نادرة عبر باب آخر .

التفتت عفاف الى الهام وهمست : كأنها غرفة انتظار في عيادة طبيب أسنان ... لا ينقصها سوى مجلات قديمة ... ابتسمت الهام ولم ترد ، فقد كان ذهنها مشغولا بالسوءالين الذين ستطرحهما على المنجمة : هل ستتزوج وترزق بأولاد ؟ وهل ستحصل على الترقية ؟ تتمنى الزواج لكي لا تسمع بأن الناس يصفونها بالعانسة ، ولكي تنجب ذرية كبيرة من أولاد وبنات ، يملوءون بيتها ، وتغذيهم من نبع حنانها الغزير حتى يكبرون .

انفتح الباب وخرجت نادرة ، كاسفة الوجه ، عيناها محمرتان وشفتاها مزمومتان ، وبدت وكأنها تبذل جهدا كبيرا لتحافظ على تماسك وجهها . أعلنت بأنها عائدة الى الفندق ولن تنتظر أحدا ، فتبعتها عفاف في صمت ولحقت بهما الهام وهي تندب حظها التعس الذى أوصلها الى باب المنجمة وعاد بها دون اجابات على سوءاليها المصيريين .

لم تنتظر عفاف أن تخبرها أختها بما قالت لها المنجمة فهي لا توءمن بأن السر الذى يضيق به صدر قد يتسع له صدران وان الهموم اذا تقاسمها اثنان صارت أخف وزنا وأسهل حملا .

بعد يومين من زيارتهن القصيرة للمنجمة أخبرتها نادرة وهي تهندم نفسها أمام المرآة في غرفتها بأنها ستنزل الى بيروت لتستعلم من الجامعة عن شروط القبول في الدراسات العليا . كانت ترتدى فستانا رماديا وحزاما رفيعا , وحملت حقيبتها الثمينة وغادرت الفندق .

دخلت من البوابة الرئيسية من أمام بواب ضخم الجثة ، يراقب الداخلين والخارجين في ضجر . وبعد أن هبطت الى أسفل الدرج الحجرى توقفت محتارة بين

زيارة ادارة الجامعة أولا أم التجول في حدائق الجامعة وشوارعها وأبنيتها الأنيقة التي سمعت الكثير عنها من أخيها الذى درس فيها . قررت أن تبدأ بالادارة فاذا قالوا لها بأنهم لن يقبلوها فستستغني عن روءيتها .

دلها طالب على مبنى الادارة . تقدمت نحو الحاجز الخشبي الذى يفصل قاعة الانتظار عن مكتب الاستقبال ، وتوقفت بجانب طالب أسمر يملأ استمارة طويلة . استعرضت وجوه الموظفات الثلاثة ثم اختارت أكثرهن بشاشة وسألتها ان كانت تستطيع مقابلة مسجل الجامعة . تابعت نادرة نظرات الموظفة الى رجل يجلس وراء مكتب صغير في غرفة مجاورة يفصلها عن مكتب الاستقبال حاجز زجاجي . أشارت الموظفة بيدها نحوه وابتسمت لها مشجعة .

نقرت عفاف على الباب ودخلت . استاءت لانه لم يرد على تحيتها ، ولم يتوقف عن القراءة . تقدمت نحو مكتبه حتى كادت أن تلتصق به ، ووضعت حقيبتها على سطحه الزجاجي بالقرب من أوراقه . رفع عينيه ، فبدا لها بوجهه المتجهم ونظراته الجامدة وأنفه المقوس مثل طير جارح شبعان ينظر الى فريسة . سألها عما تريد فأجابته بأنها ترغب بمواصلة دراستها وأنها تأمل بأن لا يكون عمرها سببا لرفض طلبها . صمت قليلا ثم قال بأنه سيوافق على طلبها لو أوصت ادارة الفرع الذى تريد التخصص فيه بذلك ، ونصحها بملىء استمارة التقديم وارسالها الى الجامعة قبل انقضاء الموعد النهائي .

خرجت نادرة من مبنى الادارة فرحة بنتيجة مقابلتها مع المسجل . تجولت في شوارع وحدائق الجامعة . جلست على مقعد اسمنتي وشاهدت البحر من فوق روءوس النخيل المصطفة على طول الكورنيش ، وتابعت مرور قوارب نزهة سريعة ، تشق صفحة البحر الازرق مثل سكاكين حادة ساحبة وراءها متزلجين ومتزلجات . عادت الى الفندق قبل موعد الغداء ، وأبلغت أمها بنيتها على التقدم بطلب الدراسة في الجامعة . قالت أمها بأن من الواجب استئذان خالها فسكتت نادرة .

في أواخر آب يبدأ المصطافون بتعداد الايام المتبقية لهم في المصيف ويتحسرون على الايام التي انقضت بسرعة لم يشعروا بها ، ويكتئب البعض منهم لاقتراب موعد عودتهم الى أعمالهم وحياتهم الاعتيادية والمنغصات التي أجلوا التعامل معها الى ما بعد انقضاء الاجازة .

استيقظت رسمية مع أول خيوط الفجر على زقزقة عصافير اختارت افريز نافذتها محطة تنطلق منها الى شؤونها اليومية . ذكرتها بطيور مغردة أهديت لها في قفص جميل ، تخرجه الخادمة الى الحديقة في الصباح وتعيده الى داخل البيت قبل حلول الظلام . قبل أيام من سفرهم دخلت الخادمة الجديدة الى الغرفة التي يوضع فيها القفص ، وأغلقت النوافذ ثم رشت مبيد الحشرات فيها وأوصدت الباب وخرجت . وفي اليوم التالي وجدت الطيور ميتة .

نزلت كنة رسمية عند مدخل المسبح ، ونزلن هي وابنتاها ، في سوق الطويلة . كان الوقت مبكرا وحركة المرور في الشارع خفيفة . سارت رسمية وراء ابنتيها متمهلة ، تنقل خطواتها في تأن على الرصيف العريض . دخلت ابنتاها شارعا فرعيا واختفيا عن أنظارها ، وقبل أن تلحق بهما نظرت أمامها فشاهدته . تجمدت في مكانها ، وتابعت ما حدث في ذهول . اجتذبت الانفعالات على وجهها فضول رجل مار في الاتجاه المعاكس فالتفت مستطلعا السبب لكنه لم ير أمرا غير اعتيادى . قالت في صوت خافت :

- انظر ! انظر ! الى الخسيس !

ولكن ابنتيها لم يسمعا عبارتها الغاضبة ، ولم يشاهداها عندما بدأت تهرول وراء الرجل ، وهي تردد لنفسها بأنها ستلحق به وتضربه بكلتي يديها ، وعندما يسقط على الارض ستركله بحذائها ، في وجهه ، وفي صدره ، وفي بطنه ، وتفضحه أمام الناس الذين سيتجمعون حولهما ليشاركوها في تأديبه . هرولت وراءه غير مكترثة بوخزات الالم في صدرها وازدياد المسافة التي تفصلها عنه .. توقفت لالتقاط أنفسها ، وفجأة مادت الارض تحت قدميها .

مدت يديها باحثة عن جدار تستند عليه فلم يصادفهما سوى الفراغ . وقبل أن تغيب عن الوعي شاهدت الابنية في الجهة الاخرى من الشارع تقفز نحو السماء.

حلمت بأنها مستلقية على ظهرها في بستان وشعرت بضغط الارض الصلبة على فقراتها الهشة . ثم أفاقت وفتحت عينيها وبدلا من الاشجار والنخيل شاهدت رؤوسا آدمية غريبة تزدحم فوقها وتحجب عنها رؤية السماء سوى رقعة صغيرة باهتة الزرقة. وأرادت أن تصيح بأصحاب العيون المحدقة فيها بجرأة وفضول أن يذهبوا ويتركوها وشأنها ، ثم شاهدت وجهين حبيبين ينحنيان عليها. استردت سمعها . سألتها عفاف في صوت باك : ما بك يا أمي ؟ وارتفع صوت نادرة : ساعدونا . اطلبوا سيارة اسعاف .

هزت رأسها وقالت في صوت ضعيف :

- أنا بخير .
- ماذا حدث لك ؟
- لا ترهقيها بالاسئلة يانادرة .

سمعت صوتا غريبا :

- أنا رأيتها . جاءت راكضة من أول السوق .

ساعدتها أيادى عديدة على النهوض وأجلستها على كرسي حمله صاحب دكان من داخل دكانه . خاطبتهم :

- شكرا . أنا بخير الان . دوار بسيط وقد زال .

قالت نادرة بأنها ستوقف سيارة أجرة لتقلهما الى الفندق فعارضت رسمية . قادتها ابنتاها الى مقهى قريب . اختارت عفاف طاولة منزوية بعيدة عن واجهة المقهى الزجاجية . طلبت رسمية عصيرا وتركت ذهنها يستعيد ماحدث بين الرجل والفتاة . كانا يسيران في اتجاهين معاكسين . اقترب الرجل منها ولما صار قبالتها مد يده اليمنى ووضع كفه بين فخذيها ، وكأنه يتحسس

ثمارا في سوق . حدث ذلك أمام عيون السابلة وركاب السيارات المارة وأصحاب الدكاكين الواقفين أمام دكاكينهم . انثنت الفتاة وكأنها تلقت لكمة قوية على بطنها ثم غطت وجهها بيدها ومشت متعثرة ، خافضة الرأس . وعندما مرت بجانبي كانت دموعها تسيل على خديها ، وترددت بين اللحاق بالخسيس لأوءدبه أو اعتراض طريقها لأواسيها .

بعد أن استردت قواها دفعت رسمية حساب المقهى وأعلنت بأنها ستعود الى السوق ، وعبرت الشارع بخطى ثابتة غير عابئة باعتراضات ابنتيها . عند عودتهن من السوق الى الفندق كان النزلاء يتناولون غداءهم . دخلت رسمية المطعم ولم تتوقف عند مائدتها المخصصة لها . مشت الى مائدة خليل ، صافحته وقالت له : أنت رجل شهم . ثم استدارت تاركة خليل يبحث عن تفسير معقول لسلوكها المفاجىء .

بعد يومين فقط بهتت شهامة خليل في عيني رسمية . كانوا يتناولون عشاءهم في مطعم الفندق ، وقد اختلطت أصواتهم العالية بقرقعة الاشواك والسكاكين في سمفونية مطاعم مألوفة ، وحين سماعهم صوت ارتطام اناء معدني بالارض توقفوا عن الكلام وعن تناول طعامهم والتفتوا نحو مصدر الصوت فشاهدوا خليل واقفا ينظر في دهشة واستنكار الى البقعة الكبيرة التي غطت دائرة واسعة فوق وتحت حزامه ، بينما وقف النادل جانبا معبرا عن أسفه بكلمات متناثرة وبحركات جسمه ويديه . أخرج من جيبه خرقة بيضاء حاول أن يمسح بها البقعة لكن خليل أبعد يده في خشونة وخاطبه في صوت مغتاظ سمعه جميع النزلاء الموجودين في المطعم : امش من أمامي الان قبل أن أفقد أعصابي . تراجع أمين مكررا اعتذاره ، وظن النزلاء بأنه تراجع خائفا من خليل الذى كان يهم بالوثوب عليه . وبعد أن غادر خليل المطعم على عجل عادوا الى تناول طعامهم والى أحاديثهم .

x x x

لم تفهم رسمية كلمة واحدة من الرطانة الدائرة بين عفاف وكنتها . عادت بذاكرتها الى مشهد من الماضي البعيد . ترى فيه ابنتيها جالستين أمام المذياع ، تعبثان بأزراره . تتباهى عفاف بأنها تستطيع التحدث بالانكليزية مثل مذيعة أجنبية ، وترد عليها نادرة بأنها أحسن منها . ترطن نادرة بكلمات غير مفهومة ، وتقلدها عفاف . تلتفت نادرة الينا - أبيها وأنا وتقول في مرح بأنها الفائزة فضحكنا . وتصنعت عفاف الزعل وأدارت ظهرها لنا وجلست قرب المدفأة . أسمع صفير الريح الباردة في البستان وأصوات ارتطام الاغصان بالنوافذ الموصدة فيغمرني شعور بالرضا والطمأنينة .

سمعوا صوت الربابة قبل أن يروهما . كان مشهدا اعتاد المصطافون على رؤيته في كل عام . غجريان : رجل وامرأة يتجولان بين فنادق ومقاهي المصيف ، هو يغني ويعزف على الربابة ، وهي تتلوى في حركات راقصة . وقفا عند مدخل الفندق ورفع الرجل ربابته ومسها بالوتر ، ثم رفع عقيرته بأغنية لم تتبين عفاف من كلماتها سوى الحبيب والشوق . أشفقت على الفتاة التي لم تكن قبل سنين معدودات سوى طفلة تساعد أمها في تنظيف البيت وغسل الصحون ورعاية أخوانها الصغار ، ولكنها تدرك بأنها في يوم قريب ستخرج الى الشارع مع عازف ربابة لترقص وتهز جسمها أمام عيون الغرباء . تخطت مرحلة الشباب في قفزة واحدة وهبطت في الجانب الاخر حطام امرأة .

رقصت بشعرها الاسود الغزير وصدرها الضامر وخصرها الدقيق في حركات مفتعلة ، تعلمتها من امرأة خبيرة مثلما يتعلم الطفل قصيدة بالتكرار والاعادة وشد الاذان حتى يحفظها عن ظهر قلب دون أن يفهم معانيها أو يحس بعذوبتها .

أنهت الغجرية رقصتها ، ودارت على الطاولات لتجمع الهبات من الجالسين أخرجت نادرة ورقت نقدية ودستها في يد الغجرية ، فأخذتها دون شكر . انتظرت عفاف تعليقا من أمها التي حدجت نادرة بنظرة حملتها عدم رضاها .

تقلق عفاف كلما احتدم نقاش بينهما ، تتصور الأسوأ : تنفعل أمها ثم تسكت فجأة وتمسك بصدرها وتقع ميتة .

بعد قليل كانوا قد نسوا الغجرية الراقصة وتحول اهتمامهم الى سيارة فخمة توقفت أمام المدخل ونزل منها رجل دخل الفندق ثم خرج خلف تميمة . وقبل أن يبلغا السيارة انفتح بابها الخلفي ونزل منها رجل يميل الى البدانة يضع على عينيه نظارة سوداء . انفرجت شفتاه الممتلئتان عن ابتسامة أبرزت اكتناز وجنتيه في انوثة متنافرة مع قسمات وجهه الغليظة. بعد مغادرة ضيفها قالت تميمة لمنير بأنه صديق زوجها فلم يرد عليها .

لم تهتم رسمية بزائر تميمة لأنها كانت منشغلة بمراقبة كنتها ومواطنها ثومبسون . شاهدتهما سوية من قبل . ومع أن الرجل عجوز الا أن ألسنة الناس مثل مناشير والسمعة عود طرى ، وكل اللوم يتحمله زوجها الذى لم يفهمها هذه الحقيقة . يقضي معظم وقته في بيروت.ينزل في كل ليلة تقريبا الى كازينو القمار . أقسم لها بأنه لم يخسر أكثر من مائة ليرة في الليلة الواحدة لكنها لم تصدقه .

× × ×

في العصر نزل خليل الى المدينة . جلس في مقهى حتى غروب الشمس ثم غادره ، وسار في الشارع الرئيسي معودا باتجاه الفندق . لم يكن قد تجاوز مبنى البلدية عندما وقعت عيناه على الرجل . شاهده للحظة واحدة ثم اختفى في زحمة المتنزهين . لم ينتظر ليتأكد ان كان هو الزعيم أم شبيه له . استدار فجأة فكاد أن يصطدم بامرأة تجر وراءها طفلين . سار بسرعة غير عابىء بنظرات الارتياب على وجوه المارة ، ثم انعطف الى اليمين وهبط على الدرج الحجرى ، درجة درجة ، ثم درجتين درجتين ، حتى لم تعد هناك درجات ووجد نفسه في ممر ترابي ضيق على جانبيه أشجار تفاح كثيفة .

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة عندما عاد خليل الى الفندق . مر بقاعة الطعام المظلمة فأحس بالجوع يقرص معدته الخاوية ، وليس لديه طعام في غرفته سوى حمص نيء .

كان فؤاد مستيقظا عندما دخل أبوه غرفتهما لكنه تناوم . تأخر أبوه اليوم عن موعد العشاء .منذ أكثر من أسبوعين وأبوه يقضي معظم أوقات النهار خارج الفندق ، ولا يأكل في المطعم الا نادرا . يحسد طارق ووليد لأن والدتيهما على قيد الحياة . غضب طارق مني اليوم لانني رفضت مشاركته في الاستهزاء بوليد وأمه تميمة ، سألته ، لو سمعت أحد يتفوه بمثل هذا الكلام عن أمك فماذا ستفعل ؟ أجابني محتدا بأنه سيقطع لسانه لأن أمه ليس مثل أم هذا - مشيرا الى وليد ، الذى سمعه فجاءنا راكضا وسدد لطارق ضربات سريعة بيديه وقدميه . أخذ طارق على غرة . رفع يديه ليتقي الضربات ثم تحول الى الهجوم . نهرتهما فلم ينتهرا ، وهددتهما بابلاغ والدتيهما فلم يتوقفا . وضعت جسمي حاجزا بينهما فتلقيت ضربات موجعة على ذراعي وظهرى ، وبعد أن أصابتني ضربة على نافوخي تركتهما ورجعت الى الفندق . أعرف بأن طارق هو المخطىء وكان علي الوقوف مع وليد ضده ، ولكني لم أفعل لاني كنت كنت مستاء من الاثنين . قبل أيام اقترح وليد أن نصعد الى أعلى الهضبة لنشعل نارا . قلت له بأنهم سيروننا من الفندق فهز كتفيه وقال : نشعلها خلف صخرة كبيرة . واذا كنت خائفا فابق هنا . وافقه طارق في حماس . تسلقت كتف الهضبة وراءهما . طلب منا وليد جمع أغصان يابسة ، وعاد يحمل لوح خشب مهترىء وضعه فوق كومة الحطب . أخرج طارق من جيبه ثلاث سجائر وعلبة كبريت ، وقدم لكل واحد منا سيجارة ، وأشعل السجائر والحطب . سعل وليد بشدة بعد أول نفس من سيجارته فرماها في النار . قلت له في لوءم : التدخين للرجال . بعد قليل قفز من مكانه قائلا بأن النار ستفرز الرجال من الاطفال، ثم ركض بسرعة نحو النار وقفز فوق لهيبها في خفة ورشاقة .حذا طارق حذوه

دون تردد . ووقفا ينظران الي لكني لم أتقدم خطوة واحدة . حثني طارق بيديه على اللحاق بهما لكني لم أسمع سوى صرخات سعدية . كانت هي الاخرى تقفز وتتلوى وتدور حول نفسها . حدث ذلك قبل سنوات وأثناء اقامتي القصيرة في بيت عمتي التي لا تطيق رؤية الاولاد . كنت أغير ملابسي بعد رجوعي من المدرسة عندما سمعت صوت تهشم زجاج من جهة المطبخ . أعقبته ولولة مفزعة . وجدت سعدية تتقلب على بلاط المطبخ ثوبها الاحمر اللماع يحترق وشعرها الاجعد مشتعلا . حاولت الوقوف على قدميها لكنها وقعت . رأيت قطعة جلد على وجهها تنتفخ حتى أصبحت بحجم فقاعة كبيرة . وامتلأ المطبخ برائحة نفط ودخان وشياط . ركضت مناديا على عمتي فلم تجبني . خرجت الى الشارع وقرعت باب الجيران . فتح لي الاب ، وبعد شرح قصير عدنا راكضين . رأيته يدثرها بالبساط الصوفي قبل أن يتصل بالاسعاف . توفيت سعدية بعد ساعات في المستشفى الحكومي وعندما أخبرت عمتي بوفاتها بكت وضمتني الى صدرها ، وكانت تلك أول مرة تفعل فيها ذلك . يخيل الي أحيانا بأني أسمع فرقعة النار وهي تلتهم بنهم شعرها الاجعد وأشم تلك الرائحة الغريبة .

تركتهما فوق الهضبة وهبطت هاربا من سخريتهما ومن النار التي ذكرتني بسعدية .

× × ×

لجأ خليل الى فراشه لعل همومه النهارية تنزاح عن كتفيه ، وليطلب النوم كما يطلب المدمن ابرة هيروين أو لفافة حشيش تنبت له جناحين يطير بهما هاربا ، مثل ذلك اليوناني القديم الذى قرأ عنه في كتاب قراءة مدرسي ، وليشهد اعادة تكوين حطام حياته المهشمة في صورة أقوى وأجمل يرضى عنها الصوت الساكن في عقله ، والذى لا شغل له سوى محاسبته وتقريعه . وعد نفسه بتكرار المحاولة . سيزور توفيق غدا ، وسيهدر أمامه ماء وجهه الذى يغذيه نبع لا ينضب . وبعد أيام سينزل الى بيروت لاستئجار شقة رخيصة في حي شعبي ويسجل ابنه في مدرسة قريبة .

في صباح اليوم التالي استيقظ فوءاد على منظر أدهشه وملأقلبه بهجة وأملا . وقف أبوه أمام المرآة يعقد ربطة عنقه ويترنم بلحن أغنية . التقت نظراتهما في المرآة فرأى فوءاد حنانا كان يفتقده وابتسامة طال انتظاره لها. بعد أن غسل وجهه ولبس ملابس الخروج سلم يده لوالده وخرجا .

توترت أعصاب ماري لدى ظهور خليل على باب مكتبها . ألقى عليها التحية وسألها في تهذيب ان كان لديها أوراقا بيضاء تتكرم بها عليه . فتحت درج طاولتها وناولته رزمة كبيرة.قال لها ضاحكا بأنه لا ينوى تأليف كتاب . احتفظ بعدد قليل منها أعاد لها الباقي . وقبل أن يتجاوز الباب التفت وسألها :

- نسيت أن أسألك عن خليل ... الزعيم .

باغتها بسوءاله وقبل أن ترد أكمل :

- هل عاد لزيارتكم ؟

أجابته في ذهول بالنفي وانصرف .

اغتبط خليل بما سمعه من ماري ، وخمن بأن امرأ ما قد شغل الزعيم عن العودة لتحصيل أتاوته ، لعله عثر على طريدة أسمن من هذه العانس التي تقبع وراء مكتبها في ارتباك وخوف .

كان نهارا مشرقا . في الجو برودة محتملة خلفها الفجر وراءه . اختار خليل بعينيه طاولة خالية في أقصى الشرفة وسار باتجاهها . اعترضه صوت منير مناديا . كان يجلس مع صلاح ، حياهما وجلس . خاطبه منير :

- أراك تحمل أوراقا . أرجو أن لا تكون مصابا بالعدوى .

نظر خليل اليه محتارا ، فأكمل منير :

- أقصد عدوى الكتابة . في يدك أوراق بيضاء وأقلام وكأنك تتهيأ لكتابة مقال أو قصيدة أو رواية .

قال خليل في تواضع :

- وهل أنا أديب مشهور مثلكم أو شاعر مثل الاستاذ صلاح .

علق صلاح :

- أى انسان موهوب قد يستيقظ في أحد الايام وفي عقله صوت يقول له : اكتب ! فيمسك بقلم ويكتب . وأنا لا أستثنى أحدا: طالب، موظف ، عامل ، نادل ...وضغط على الكلمة الاخيرة متعمدا.

هز منير رأسه موافقا وقال :

- ولكن الثقافة ضرورية . الثقافة هي الماء والهواء لبراعم الموهبة .

التفتوا نحو باب الشرفة لدى سماعهم صوت تميمة . مال منير نحو خليل وأسرّه : جاءت من لا يمل حديثها . صافحتهم وجلست . أطالت النظر الى خليل ثم خاطبته :

- سمعنا الكثير عنك ولكن نادرا ما نراك ... بصراحة فان ما سمعته عنك أخافني قليلا .

وضع خليل كفه على صدره في تعجب وقال : أنا !

ابتسمت وقالت :

- يصفونك بأنك رجل مقدام وخطير .

قال وكأنه يدفع تهمة عن نفسه :

- أنا انسان عادى ، وأضاف ممازحا : الأدباء والشعراء هم الخطرون .

علق صلاح ساخرا :

- لذا يودعونهم السجون .

اكفهر وجه خليل معتقدا أن اشارة صلاح الى السجون موجهة اليه بالذات . خاطبته تميمة :

- أنت خلصت أصحاب الفندق من دفع أتاوة كانت ستؤدى بهم الى الاقتراض والافلاس . لا أعرف كيف نجحت في ذلك ولكني معجبة بما حققته .

قال منير :

- لم أفهم .

وقال صلاح :

- قد يكون سرا .

قالت تميمة :

- الموضوع ليس سرا . قبل أسابيع جاء بلطجي وفرض على أصحاب الفندق دفع أتاوة كبيرة . وأضافت مخاطبة خليل : ثم قابلته واختفى ، ولكن كيف أقنعته ؟

أجابها خليل :

- لم يكن ذلك صعبا ، أفهمته بأن طلبه غير معقول وان أصحاب الفندق ليس لديهم نقود .

قالت متعجبة :

- هكذا ، وبكل بساطة .

قال صلاح ساخرا :

- ربما رأى النور وتاب .

قال منير :

- لو عرفنا بالموضوع لكنا ساعدناهم بفكرة ، برأى .

قالت تميمة وهي تنظر الى خليل بامعان :

- لا أظن بأن الزعيم يخاف من أفكار مهما كانت عظيمة وعميقة . ثم سألت خليل : صفه لي ؟ هل يشبه صورة البلطجي الشائعة في الكتب . سحنه متجهمة وشوارب مبرومة .

ابتسم خليل وأجابها :

- حاجباه كانا كثين بالفعل ، وفيما عدا ذلك فانه انسان عادى ، مثلنا .

قال صلاح :

- ربما كان بلطجيا مزيفا .

قالت تميمة مخاطبة خليل :

- ثقة رسمية بك كبيرة . سألتها بعد أيام من لقائك مع الزعيم فقالت بأن الموضوع قد سوي وانتهى .

- أهذا ما قالته ؟

- حرفيا . قل لي بصراحة ألم تهدده أو شيء من هذا القبيل ؟
- أبدا . أنا لا أحب العنف .

قال منير :

- لا يصلح اعوجاج الحديد الا النار والطرق .

وسأله صلاح :

- ألم تخف منه ؟

فأجابه :

- ولماذا أخاف ! استعملت لغة المنطق معه فاقتنع وانصرف في هدوء .

قالت تميمة متحسرة :

- بودى لو كنت حاضرة ، لأستمع لما دار بينكما .

خاطب صلاح منير :

- الموضوع يستحق قصة .

فأجابه منير :

- أو قصيدة .

تحولوا الى الحديث عن موضوعات أخرى . أتوا على ذكر أسماء أشخاص لم يسمع بهم من قبل ، وعناوين كتب لم يقرأها . حاول متابعة حديثهم لكنهم كانوا في عالم خاص بهم ، ولجوه وتركوه في الخارج محرجا . اضطروه للكذب فهو ليس بطلا . وضعوه أمام الاختبار ففشل ، ولكن لسبب يجهله حتى الان غاب المعلم وضاعت ورقة الامتحان ، ومع ذلك فلايزال يشعر بالمهانة في نفسه . سيكتب منير قصة أو صلاح قصيدة يسخر بها من بطولاته الوهمية . استأذن ورجع

الى غرفته .

x x

جلسا متقابلين . صلاح على كرسي الخيزران ، ذراعه مسندة الى الطاولة وعلى وجهه ابتسامة خفيفة ، وعيناه تدوران على محتويات الغرفة . وجلس خليل على طرف سريره ينظر الى زائره المفاجئ الذى دق بابه مدعيا بأنه حضر لاعادة الاوراق والاقلام التي نساها على طاولتهم في الشرفة . دعاه للدخول فلم يرفض . دار في الغرفة وكأنها فزار مقدس . وقال بأنه نظم فيها قصيدتين. أبدى خليل استعداده لمبادلة الغرفة فضحك وشكره على كرمه ،وقال بأن للمكان تأثير على الانسان ـ والا لما درسوا موضوع الجغرافية في المدارس ، وتكلم عن الشعر والجغرافية كلاما لم يفهم خليل أكثره ، لكنه أعجب بحماسه الى درجة جعلته يتناسى الجفاء الذى كان يشعر به تجاهه . وقبل أن ينصرف ضيفه كان مستعدا لأن يغفر له ذنوبا أسوأ من تلك التي تصورها في ذهنه وألصقها به .

في الايام القليلة التالية تطورت العلاقة بينهما من المعرفة السطحية الى الانسجام الذى يسبق الصداقة الحقة.وتوسعت دائرة الألفة بينهما لتشمل ابنه فوءاد . اكتشف صلاح أن فوءاد يهوى الرسم ، فأهداه دفترا للرسم من النوع الذى يستعمله المحترفون مع علبة ألوان فاخرة ،وجلس يسأله في صبر وأناة عن اللوحات التي سيرسمها ، وكان لطيفا معه فتغلب فوءاد على حيائه وصار يتحدث معه بطلاقة وجرأة . في احدى زياراته لصلاح فتح له قلبه فاندفع منه سيل دموى من المشاعر المتخثرة . حدثه عن ماضيه ، عن الوظيفة التي كان يمقتها ولم يجروء على تركها خوفا من الفقر ، فتركته الى الغربة والقلق . وعاد الى غرفته خفيفا مثل مفصود وبشعور امرأة محافظة تزور طبيبا لاول مرة، خليط من الانزعاج والارتياح : الانزعاج لان الطبيب شاهد وتلمس مواضع من جسمها محرمة عليه والارتياح لانه طمأنها بأن حالتها ليست ميوءوس منها .

x x x

وضعت بلقيس الاكياس الملآنة على الارض وارتمت على فراشها مشتكية من

التعب ، بينما وقفت الهام قرب سريرها منهمكة باخراج ملابسها الجديدة من الاكياس لتستمتع بألوانها وملمسها ثم تعيد طيها بعناية وتنضدها على السرير. حملت فستانا صيفيا أزرق عليه وردات كبيرة وسألت صديقتها في لهجة من ينتظر الاطراء عن رأيها به . أجابتها بلقيس :

- أتريدين رأيي الصريح ؟

- بالطبع ! ألا يعجبك ؟

- بصراحة . لو عثرت به على قارعة الطريق ، بكاغده ، جديدا غير ملبوس لما التقطته .

عاتبتها :

- لم تقولي هذا الكلام في الدكان !

قالت بلقيس في لؤم :

- لو تسأليني عن رأيي في كل ما اشتريته ...

قاطعتها بلقيس ساخرة :

- لا تكملي ! أنا ممتنة منك جدا ! أنت صديقتي المخلصة !

- لا تعبسي في وجهي . احمدى ربك لان لك صديقة مثلي .

- اسمعوا من يتحدث عن الصداقة والصديقات .

- صديقاتي بعدد شعر رأسك .

رمت الهام الفستان جانبا وتحدتها :

- سميهن . أتحداك أن تسميهن .

أجابتها وهي تعد على أصابع يدها :

- خلود ، سليمة ، المعاونة ...

قاطعتها الهام :

- أتعتبرين سليمة صديقتك ؟ لو سمعت ما قالته عنك .

رفعت بلقيس جذعها على كوعها وسألتها :

- ماذا قالت ؟

- أنا لست نمامة ولا وقاعة.

- يتحدثون عني بسوء وراء ظهري ولا تدافعين عني ، وتدعين بأنك صديقتي !

- أنا صديقتك الوحيدة بالفعل لكنك لا تقدرين ذلك .

- هات برهانك .

- ستندمين .

- أنا لا أعرف الندم .

- لا تنسي بأني حذرتك .

- لن أنسى بأنك أخبرتني بالموضوع بعد مرور أسابيع أو أشهر أو سنين .

- تذكرين حملة معونة الشتاء في السنة الماضية ؟

- بالطبع . ألم أكن المديرة والمسوءولة عن الحملة ؟

- بعد انتهاء الحملة وتسليم التبرعات سمعت سليمة تقول في غرفة المعلمات بأنها ستقدم شكوى ضد المديرة الى المديرية قلت لنفسي لا بد أن بلقيس أهانتها أو عاقبتها ، ولكن احدى المعلمات أخبرتني بالسبب الحقيقي . تذكرين بأنك اخترت بعض الملابس والبطانيات .

- ملابس وبطانيات ! ... أعطيتها لجارتي ، أرملة وأم لخمسة

أولاد أيتام . هل قالت بأنني آخذتها لنفسي .

- قالت للمعلمات بأنها كانت جديدة أو مثل الجديدة .

جلست بقليس وصاحت في اهتياج :

- كذابة . أنا أطعم بملابس مستعملة وبطانيات قديمة ولكن أين ستذهب . سنعود بعد أيام وستذوق سليمة مرارة انتقامي . وأنت ، تردد الاكاذيب عني أمام المعلمات وتكتمين ذلك عني ! اشتد هياجها فلم تعد تتحمل الجلوس ، قامت ودارت حول سريرها ثم استأنفت : تشتكيني الى المديرية ! أنا سجلي نظيف مثل الثلج وملفي ليس فيه سوى خطابات الثناء والتقدير ... ومن يدرى فقد يستغلها أعدائي في المديرية .

- أعداء !

- أعداء ، منافسون لا يتورعون عن فعل أى شيء . يعرفون بأني مرشحة لمنصب مهم . انها موءامرة دبرها أعدائي بالتواطوء مع سليمة الخائنة .

قامت الهام قائلة بأنها ستغتسل وتنتظرها في البهو ليتناولا طعام الغداء سوية . صاحب بلقيس وراءها :

- اذهبي وتخلي عني كعادتك .

× × ×

الأسبـــوع الأخيـــــر

تنهدت ماري في ارتياح لأنه لم يتبق سوى اسبوع على انتهاء الموسم. وبعد مغادرة النزلاء سيكون الفندق لهم وحدهم لمدة أسبوعين كاملين . قبل أيام غادر صادق وعائلته ، ولا تتوقع عودتهم في الموسم القادم ، وقبلهم غادر الزوجان اسكندر وصباح ، وكعادتها في كل وداع ، ذرفت صباح الدموع، ووعدتها بأنهما سيعودان في الصيف القادم .

كانت قد استأنفت عملها في اعداد حسابات النزلاء المغادرين عندما اندفعت حنان الى داخل مكتبها وأخبرتها لاهثة بأن أمها مريضة ، وترجتها أن تأتي معها لرؤيتها .

كان وجه تميمة مختفيا تحت أغطية الفراش . اقتربت من سريرها ونادت عليها ، ولما لم تسمع جوابا رفعت الاغطية عن وجهها ببطء فطالعها وجه تميمة ، شاحب اللون ، والعينان شاخصتان الى السقف . وكأن حنان قرأت مايدور في ذهنها فراحت تولول : أمي ماتت ! نهرتها ماري ثم خطت نحوها وضمتها الى صدرها . عادت الى جانب سرير تميمة، وتحسست جبينها فوجدته دافئا، ثم لاحظت بأن رأسها قد مال الى جنب . جفلت عندما صدر منها أنين طويل ، وشاهدتها تسحب الاغطية فوق رأسها . سألتها عما بها فأجابها صوت بكاء . استدارت الى حنان وقالت لها بأن أمها بخير ، وانها متعبة وستستدعي الطبيب ليعالجها .

قضت ماري دقائق الانتظار الثقيلة في الاجابة على أسئلة رسمية عن حالة تميمة . ثم حضر جبور . رافقته ماري الى داخل غرفة تميمة ، وبعد أن أشعلت الانوار خرجت . انتظرته عند الباب ، وفكرت بتميمة ، تخفي وجهها تحت الاغطية وتبكي بحرقة . كانت تلك أول مرة تراها ضعيفة . أقلقتها نظرات جبور عند خروجه من غرفتها . سبقها الى السؤال : ماذا حدث لها ؟ أجابته مندهشة:

- ماذا تقصد ؟ انها مريضة . حضرت ابنتها الى مكتبي قبل أقل

من نصف ساعة وأخبرتني بأن أمها مريضة . وجدتها على هذه الحالة . لم تشكو من شيء بالامس .

- هل زارها أو اتصل بها أحد ؟

- لا أحد ولكن لم كل هذه الأسئلة ؟

أجابها وهو يخطو مبتعدا عن غرفة تميمة .

- أعصابها منهارة . أنا لست طبيبا نفسيا لكن كل الاعراض تدل على أنها تعرضت لصدمة شديدة ، وسيكون من المفيد معرفة السبب .

- كانت طبيعية بالامس . تضحك وتمزح معنا كعادتها .

- وعلاقاتها مع النزلاء ؟

- جيدة والكل يحبها .

- وهل تربطها بأحدهم علاقة ... من نوع خاص ؟

أجابته : لا ، وبعد أن أدركت من نظراته مغزى سؤاله بالكامل أضافت متسائلة : تقصد صديقا ... رجلا ؟ أجابها بهزة رأس فقالت : لا ..لا أعرف ، لا أظن لماذا تسأل ؟

- لو لم يكن لدى سبب وجيه لما سألت . سأصف لها دواء .

صمتا لدى سماعهما صوت أقدام على الدرج . كانت رسمية التي سألت جبور عن صحة تميمة فطمأنها بأنها بخير . قالت رسمية :

- أثناء الليل أيقظتني أصوات صادرة من غرفتها . كنت أنوى معاتبتها اليوم .

سألها جبور :

- هل كانت تتكلم أثناء نومها أم مع شخص آخر ؟

- لست متأكدة . تصورت بأنها تتحدث مع ابنها أو ابنتها .

قالت مارى :

- ولداها ينامان في غرفة منفصلة . الابن لديه مشكلة .يبلل فراشه في بعض الليالي .. لهذا السبب لا توصد باب غرفتها .

صمت جبور وبدا وكأنه يفكر بما قالته مارى ثم التفت الى رسمية وسألها :

- وهل تذكرين الكلام الذى سمعتيه في الليل ؟

- كنت نصف نائمة ولكن لم كل هذه الاسئلة وكأنه تحقيق شرطة .

ابتسم جبور وقبل أن يرد خاطبت رسمية مارى :

- هل أخبرت الطبيب عن الحبوب المنومة التي تأخذها تميمة ؟

قال الطبيب :

- لا تتركوها في متناولها .

وقالت مارى :

- سأخفيها .

غادر الطبيب بعد أن وعد بالمرور على مريضته بعد الظهر . أمسكت رسمية بيد مارى وقادتها الى داخل مكتبها وبعد أن ردت الباب سألتها في صوت خافت :

- بيني وبينك ما هو مرضها ؟

- انهيار عصبي .

- شعرت من كلام الطبيب بأنه يخفي عنا شيئا . هل بلغت زوجها ؟

وضعت مارى يدها على رأسها وقالت :

- نسيت ... ولكن اذا كان هناك سر كما تقولين ... وقبل أن تأتين سألني جبور ان كانت لها علاقة بأحد النزلاء .... الرجال .

وضعت رسمية يدها على فمها وجحظت عيناها . أكملت مارى : ماذا ترين ؟ هل اتصل بزوجها ؟

- لا ، يمكنه الانتظار حتى يتضح الموقف . اذهبي واطلبي من احدى البنات الجلوس معها ولا تنسي الحبوب المنومة .

عادت مارى الى مكتبها ، وفي ذهنها المزدحم بالتساؤلاء أمنية واحدة : أن تغمض عينيها وتفتحهما فتجد أن أباها مازال سليما معافى ، يدير الفندق ويقرر ما هو صائب بنفسه ، وانها مازالت ابنته التي تساعده في الامور الصغيرة - اذا طلب منها ذلك . تذكر قصصا عديدة عن حزمه في ادارة الفندق ، قبل سنوات نزلت عندهم عائلة مكونة من أبوين وابنهما الوحيد . ما أن يظهر الرجل على باب الشرفة عائدا من الخارج حتى تهب زوجته واقفة . ودون أن يتبادلا كلمة واحدة تتبعه الى غرفتهما ، حتى رسمية استنكرت تصرفها فقالت : أهذه امرأة أم جروة ؟ " أما الابن فقد كان مهذبا وخجولا الى أن حاول في أحد الايام الامساك بيدها فصدته وأفضت الى أمها بما حدث . وبعد يومين غادرت العائلة الفندق . استاءت لانها كانت سبب طردهم من الفندق لكنها اقتنعت في النهاية بأن الشاب هو الذى جنى على نفسه وعلى عائلته .

دخلت عفاف الى مكتبها وخاطبتها في مرح :

- أتمنى حضور فلمين في يوم واحد ، وأتنزه في الشارع الرئيسي حتى تكل رجلاى وأجلس في المقهى حتى يطردني النادل دون أن أفكر بأمي التي تعد الدقائق منتظرة عودتي .

ردت عليها ماری في قلة صبر :

- لماذا لا تفعلين ذلك ؟ أنت لست صغيرة .

قالت معاتبة :

- وكأنك لا تعرفين أمي .

قالت ماری مدفوعة برغبة خبيثة وقوية في القسوة على صديقتها :

- أمك تعاملك كطفلة صغيرة وأنت راضية .

- وماذا أفعل ؟ أعلن العصيان عليها .

أجابتها ماری في ضيق :

- لا أعرف ، انها حياتك ، افعلي ما يريحك .

بعد أن خرجت عفاف ندمت ماری لانها لم ترد ايذاء صديقتها . كانت تتمرن على اصابة احباطاتها حينما ظهرت عفاف فجأة في ميدان الرمي فأصابتها في الصميم .

تناولت بلقيس افطارها في صمت ، وفشلت كل محاولات الهام لاستدراجها الى مناقشة مرض تميمة المفاجیء . لامت الهام نفسها لانها هي السبب في غمة صديقتها التي تبدو مرتسمة على وجهها وفي صمتها . تكدر مزاجها منذ أن أخبرتها بشكوى سليمة . لم يتبق سوى ثلاثة أيام على نهاية الاجازة - أثمن ثلاثة أيام - تود الهام لو تصير كل ساعة بطول يوم كامل تقضيها في السوق وفي الشرفة وفي تبادل الاحاديث مع صديقتها قبل عودتهما الى الحر وهموم الاهل والوظيفة .

بعد الافطار خرجت رسمية وعائلتها الى الشرفة . وبعد قليل قامت رسمية وقالت بانها تريد الاطمئنان على تميمة ، ثم تذكرت عفاف بأنها لم تبدأ بعد بترتيب أمتعتها استعدادا للسفر فانصرفت وتبعتها نادرة متأففة

من المهمة المضجرة . جلس زهير وزوجته متقابلين بينهما حاجز الصمت أعمق وأظلم من محيط . من لا يعرف بأنهما زوجان يظن بأنهما غريبان اضطرا للجلوس على طاولة واحدة لان طاولات المحل الاخرى كانت كلها مشغولة . لم تطل الجلوس. شربت قهوتها وقامت .

كان ذهن زهير مشغولا بمغامرته الليلية فلم يشعر باقترابه الا حينما خاطبه متعجبا :

- أراك تجلس لوحدك !

رفع زهير بصره الى الانجليزى العجوز . ابتسم له وأجابه :

- هجرني الجميع .

قال الانجليزى وهو يجلس أمامه :

- لا أصدق بأن أحدا يتعجل الرحيل من هنا .

- زوجتي . انها لا تطيق المكان وتبغض أهله . اعتقد بأنها مشتاقة الى الطقوس الانجليزية : المشي تحت المطر ، الجلوس على مصطبة في المنتزه العام واطعام الوز والبجع في برك المنتزه ، ألا تشتاق لها أنت أيضا ؟

ضحك الانجليزى وأجابه :

- أحيانا ، وأشتهي وجبه انجليزية دسمة : سمك مقلي مع بطاطا ملفوف في ورقة جريدة وسهرة في بار معتم مع أصدقاء حميمين.

راقب زهير اقتراب منير وصلاح من مدخل الفندق . منير في بدلة رمادية يتكلم بحماس معبرا بيديه وحركات جسمه . يسير بجانبه صلاح مطأطئ الرأس في بنطلون وقميص صيفي . ألقيا التحية واستأذنا في الجلوس معهما . بعد صمت قصير لاحظ صلاح أن الشرفة مهجورة فقال زهير :

- الجميع منشغلون باعداد حقائبهم .

قال منير في لهجة حزينة :

- مكان تميمة خال . لا أصدق بأنها مريضة وأعصابها متعبة . لا بد أنها تعرضت لصدمة عنيفة .

قال زهير :

- الجميع مكتئبون في هذه الايام والسبب واضح وهو اقتراب موعد السفر ومفارقة المصيف ، كأننا طلاب في الاسبوع الاخير من اجازة الصيف .

فكر زهير مع نفسه : ماذا سيفعلون لو عرفوا سبب مرضها ؟واذا سألوني فماذا أقول لهم ؟ سأرد عليهم بأنها كانت لقطة ، وكنت أنا المتسكع المحظوظ الذى عثرت عيناه عليها . سقطت من صاحبها الذى لم يعرف كيف يحافظ عليها . مر بها كثيرون ، وكانت أمام عيونكم طول الوقت فلم ترونها وشاءت الصدف أن تكون من نصيبي ، كنت هاربا من فراش الزوجية الذى لم تتبدل فيه الفصول مذ تجمد على شتاء قارس وحملت عذرى تحت ابطي ، كتاب سمعتها تبدى رغبة بقراءته . قرعت بابها فلم أسمع جوابا . قرعته مرة ثانية بالحاح فانفتح الباب الذى لم يكن موصدا ، وهبت من الداخل روائح الانثى النائمة في الداخل ، عطور وأنفاس دافئة . ودفعتني نزوة تلصص مراهقه الى داخل الغرفة . ناديت عليها فلم تجب ، كان في الغرفة متسلل آخر ، ضوء الممر ، أغلقت الباب وبقيت لوحدى معها في الظلام . بعد تعود عيناى على الظلام تلمست طريقي الى سريرها متعجبا من استغراقها في النوم . كانت تنام مضطجعة ويدها فوق الغطاء . تملكتني رغبة قوية في لمس اليد البضة المشعة وكأن بداخلها مصباح . ترددت قليلا فماذا لو أفاقت وشاهدتني واقفا قرب سريرها وأصابعي تدب على يدها نحو منابع النور . اختلقت عذرا : أحضرت لك الكتاب ووجدت باب غرفتك مفتوحا فدخلت للاطمئنان عليك . ولكنها اذا استغاثت قبل أن

تعطيني الفرصة لتقديم عذرى فسيهب لنجدتها المعجبون والعجائز ، وستكون فضيحة ، أهون نتائجها تشويه صورة أمي القدسية أمام أصحاب الفندق ونزلائه ولن تغفر لي هذا أبدا . كان جذب الضوء أقوى من التردد فسرت نحوه مثل بدوى هدّه الجوع والظمأ . شجعني على التمادى الصمت والظلام والمراهق الذى أفاق داخلي . رفعت يدها وأزحت الغطاء فاكتشفت بأن مصدر الضوء ليس نارا بجانبها دلة قهوة وأسقية ماء ولبن يروى البدوى الضيف منها عطشه وحفنة تمر تسد رمقه وانما كنزا من ذهب ولآلىء وعقيق وفضة . وقفت ذاهلا عن الخطر الكامن لي ، ناسيا لأبسط شروط الحيطة والحذر التي يعرفها كل لص محترف للسطو . كانت كل جواهر الكنز ترقد أمامي ، روعتها واضحة للعيان رغم ظلام الغرفة وثوب النوم الخفيف . خيل لي أن فصا العقيق قد انفرجا قليلا.اعتقدت بأنها تتناوم ـ أو هكذا أردت . قلت لنفسي بأنها أحست بوجودى ورأتني ولا تمانع ولكنها تريد أن تلعب لعبة التناوم ، تمثل دور الاميرة النائمة ولكن قبلة واحدة لن تكفي لبعثها من رقادها الطويل . يتسابق اللاعبان أو الممثلان مع اللهفة والرغبة والخاسر هو الذى يفقد السيطرة ويستعجل النهاية فيخرج من اللعبة الى الواقع . صممت ألا أخرج خاسرا ، لكنها تململت وفتحت عينيها ، فأدركت بأن وقت اللعب قد انتهى وان علي أن أصل خط النهاية وانسحب بسرعة ...قضيت بقية الليل مفكرا بما سيحدث واستبعدت الفضيحة لأنها ذات حدين .

قام زهير وتمطى . رفع يده محييا ثم سار باتجاه باب الشرفة .

× × ×

بعد الظهر دخلت سلمى الى مكتب اختها تحمل في يدها منشفة مطوية. وبعد اغلاق الباب بالرتاج تحت انظار اختها المندهشة ، وضعتها على الطاولة في حذر ثم فردت طياتها كاشفة عن مسدس . أخبرتها في انفعال بأنها كانت ترتب درج بركات فعثرت عليه بين ملابسه . ازدحم ذهن مارى بأسئلة ملحة: ماذا

يفعل بمسدس؟ وكيف حصل عليه ؟ والاهم من ذلك كله هل ينوى استخدامه ؟ ولكنها طرحت على اختها سؤالا واحدا : أين هو ؟ فأجابتها بأنه خرج بعد الغداء ولم يعد ، ثم سمعا قرعا على الباب . أشارت مارى الى أختها بألا تفتح الباب. طوت المنشفة على المسدس ووضعتها داخل الدرج وأقفلته بالمفتاح . تكرر الدق عاليا وملحا . فتحت سلمى الباب فطالعها وجه رسمية ونظرة ارتياب . أسندت رسمية يدها على عضادة الباب وأخبرتهما بأنها كانت مع تميمة وأنها لاتزال تبكي وترفض اخراج رأسها من تحت الاغطية . بعد انصراف رسمية أوصت مارى اختها بالا تخبر أحدا عن المسدس ـ ولا حتى أمها .

عاد بركات في العصر . قادته سلمى الى مكتب اختهما التي فتحت درج طاولتها في صمت وأخرجت المنشفة المطوية . ارتبك حين ظهر المسدس . لم ينكر بأنه يعود له ، وأخبرهما بأنه استعاره من طالب في مدرسته ، ودفع له خمسين ليرة مقابل الاحتفاظ به لمدة شهر ، ثم قال في حماس بأننا بحاجة لسلاح للدفاع عن أنفسنا وانه لا يوجد بيت في الجبل بل في البلد كله يخلو من سلاح . خرج صوتها غاضبا ومرتجفا وهي تأمره باعادة المسدس الى صاحبه حالا . بعد أن أخذ المسدس وخرج وضعت مارى ذراعها على الطاولة وتوسدته . سمعت سلمى صوت بكاءها فخطت نحو لتحتضنها ويبكيان سوية .

قبل زيارة الطبيب الثالثة في ذلك اليوم توقفت تميمة عن البكاء. أمسكت بيد مارى وطلبت منها احضار ولديها لتراهما قبل أن يعطيها جبور دواء مسكنا . رفعت اليها عينان منتفختان فيهما رجاء وحزن واستسلام ذكرتها بابنة قريبهم التي أخذتها في السنة الماضية لتسجلها في مدرسة داخلية . عاد الاب الى جبله مسرعا وعهد اليها بالبنت وبالمهمة الصعبة . في غرفة المديرة أجهشت الطفلة بالبكاء ، وتعلقت برجل مارى قائلة بانها تريد العودة الى أمها . ظلت تلاطفها وتعدها بزيارتها في نهاية كل أسبوع حتى هدأت واستسلمت ليد المديرة الممدودة .

في اليوم التالي هبت نسمات رطبة . وقالت بديعة بأنها تشم في الهواء رائحة مطر . وقبل الظهر هطلت قطرات مطر كبيرة ، ثم سرعان ما اختفت الغيوم الرمادية التي أسقطتها وراء الجبال الشرقية وعادت السماء صافية ولكنها خلفت وراءها برودة تنذر بخريف يوشك على القدوم . لم يمنع المطر والجو البارد الهام وبلقيس التي خرجت من صمتها واستعادت طبيعتها المشاكسة من النزول الى بيروت . دار منير على النزلاء الجالسين في المطعم مودعا . صافحة خليل بحراره وأخبره بأنه سيعود الى بلده فتمنى له حظا وافرا . ألح على ماري حتى سمحت له بتوديع تميمة . نزل بعد دقائق وسارا معا الى خارج الفندق . غادر صلاح في نفس اليوم ، بعد أن دفع حسابه سلمها مظروفا مغلقا فيه رسالة لتميمة .

بعد الظهر خلا الفندق من نزلائه فيما عدا تميمة ورسمية وعائلتها . كانت عفاف تساعد أمها في اعداد حقائبها عندما انفتح الباب بعنف ودخلت كاثرين . لم تفهم رسمية كلامها لكنها أدركت بأنها المقصودة بكلماتها الغاضبة واصابع الاتهام التي كانت توجهها اليها . استنجدت بابنتها وسألتها: ماذا دهاها ؟ لكن عفاف ظلت مطرقة تحمل في يدها قميصا مطويا كانت تنوى وضعه في الحقيبة ، ثم دخل زهير من الباب المفتوح وحاول سحب زوجته ، لكنها دفعت يده في خشونة وخرجت ، وتبعها زوجها .

قامت رسمية وأغلقت الباب . خاطبت ابنتها : فضحتنا ! لماذا كانت تصرخ ؟" أجابتها عفاف : " تشتكي من زهير " . ثم دخلت نادرة وسألت عن كاثرين ، فردت رسمية بأنها غادرت وترجو أن تكون بدون رجعة . قالت نادرة بأنها زارتها في غرفتها وأخبرتها بأنهما تجادلا فطلبت منه الطلاق فوافق وتبجح بأنه سهر في غرفة تميمة في الليلة قبل الماضية ثم خاطبت أمها في انفعال " أتريدين معرفة ما قالته عن ابنك المدلل ؟ ". قالت بأنه معقد ، ويكره النساء ، وبعد أن تعرفت على عائلته وبالاخص والدته لم تعد تتساءل عن

سبب ذلك . لم تكتف نادرة بذلك فقالت بأن أخيها يذكرها بأبيه ، ومن شابه أباه ما ظلم . بعد خروج نادرة خطت عفاف الى أمها وطوقتها بذراعيها .

عاد زهير من أجل حقائبه وبعد مغادرته زارت رسمية تميمة . وجدتها جالسة وقد أسندت ظهرها الى متكىء السرير . جلست رسمية بجانبها واحتضنتها . أسندت تميمة رأسها الى كتف رسمية وبكت لعدة دقائق ثم جففت عينيها وأنفها بمنديل وقالت بأنها أخذت حبة منوم في تلك الليلة كعادتها ، وبعد وقت قصير أيقظها ابنها ، ساعدته في تغيير ملابسه وشراشف فراشه ثم عادت الى غرفتها وتناولت حبة ثانية ، وانها كانت تحت تأثير المنوم عندما دخل غرفتها فلم تشعر به . قاومته لكنه كان أقوى منها . قالت لها رسمية بأنه سافل وناقص تربية ، لم تحسن تربيته ولن تغفر له أبدا ، وبكيا سوية .

كان الوقت قد جاوز الظهر عندما أفاقت تميمة . استنتجت ذلك من ميلان أشعة الشمس المتسللة من النافذة ومن طنين رأسها . لازمت فراشها منذ تلك الليلة . عطلت ذاكرتها بالنوم فمنحها ذلك خلاصا موءقتا ، وبكت لتغسل بدموعها أدران تلك الليلة . ولم تستطع مغالبة النفور الذى كان يتحرك في داخلها كلما رأت وليد لانه لو لم يكن يبلل فراشه لما تركت باب غرفتها مفتوحا ولما دخل الى غرفتها . وذكرتها زيارات رسمية المتكررة بابنها ولكنها لم تقرر الافضاء اليها بالحقيقة الا بعد أن أفاقت البارحة على صراخ الانجليزية وسمعتها تردد أكاذيب زوجها بأنه دخل الى غرفتها في تلك الليلة مدعوا وليس متسللا . قالت لها رسمية بأنه غادر دون أن يودعها ، وتبرأت منه ووعدتها بكتمان السر . اليوم هو آخر يوم لهم في الفندق ، وآخر صيف لها فيه فهي لن تجروء على العودة اليه لأنها وان كانت الضحية البريئة فلا تستبعد أن يضعوا اللوم ، كله أو بعضه ، عليها . سيقولون بأنها شجعته عن قصد أو عن غير قصد بفتنتها وجرأتها ومخالطتها للرجال الاغراب . وبعد أن يستغفروا من الغيبة والطعن في الاعراض سيتذكروا جلوسها وسط الحلقات التي يعقدها منير وصلاح وزوارهما الذين يحضرون بشعورهم الشعثاء وملابسهم المجعدة

وأصواتهم العالية . كانت تجلس معهم ، تشترك في مناقشاتهم ، تمازحهم وتضحك معهم وكأنها مثلهم وليست امرأة متزوجة محصنة . ولن تعود الى الفندق لانها تريد حياة جديدة خاصة بها تختلف عن حياتها السابقة التي كان والداها وزوجها يسيرونها كما يشاؤون . أزاحت أغطية الفراش عنها وقامت لتتفحص وجهها أمام المرآة .

× × ×

كانت رسمية مستلقية على فراشها تراقب عفاف الواقفة أمام حقيبة مفتوحة . وفكرت بانها كل ما تبقى لها من عائلتها . خاطبتها :

- أنا أعرف بأنك تدخنين .

لم ترد عفاف فاستأنفت كلامها :

- أنت تعرفين رأيي بالتدخين ، لكن مادمت تدخنين فلا داع لاخفاء ذلك عني .

توقفت عفاف عن طي الملابس وقالت :

- سأتوقف اذا كنت تريدين ذلك .

- أنا لا أريد غير مصلحتكم . يا ليت أختك تفهم ذلك . لو ضربتني بالرصاص لما كان ألمي أشد . أنا بلعت الاهانة وسكت لكن أباك ... كيف تقول عنه هذا الكلام . كان خيمة مرفوعة فوقنا .

- نادرة تقول ما لا تعنيه أحيانا .

- اذا تريد اكمال دراستها فلن نعارض - لا أنا ولا خالها . وأنت أيضا أكملي دراستك اذا شئت .

- وماذا أفعل أنا بالدراسة والشهادات العليا . اطمئني سأظل بجوارك .

قالت رسمية في مسكنة :

- أنت كل ما تبقى لي . هجرنا أخوك وعاد ليفضحنا وسط الناس . بأي وجه سنعود الى هنا ؟

- زهير رجل وأنت لست مسؤولة عن تصرفاته .

- ولكن الناس ، ماذا سيقولون ؟ ألن يقولوا بأن أمه لم تحسن تربيته .

- أنت قمت بواجبك.. وهل يتحمل اللوم وحده ! وهي ؟

- مسكينة ، لو تعلمين ...

- وهل كلامه كذب ، وانها لم تدعوه الى غرفتها كما قال ،وانه لفق القصة لاغاظة زوجته واثارة غيرتها ؟

- أخوك كذب . ماذا سيقول الناس عنا وعنها ؟

قبل انتصاف النهار غادرت رسمية وابنتاها الفندق ، وخرجت بديعة ومارى وسلمى لوداعهن . وفي المساء ودعن آخر النزلاء - تميمة وولديها .

وفي اليوم التالي شاهدت مارى على طاولة مكتبها مخلفات النزلاء التي جمعتها الخادمتان أثناء تنظيفهما للغرف . جلست وراء طاولتها وتفحصتها: أوراق عليها كتابة بخط صلاح ، رسالة من زوجة منير تعاتبه فيها على طول غيابه عنها وعن أولاده المشتاقين له ، أنبها ضميرها بعد السطر الثالث فوضعتها جانبا ، وتناولت علبة مجوهرات صغيرة شمت عليها عطر تميمة ، فتحتها فوجدتها فارغة . مزقت الرسالة والاوراق ورمتها مع علبة المجوهرات الفارغة في سلة المهملات .

× × ×